الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
جامعة 8 ماي 1945- قالمة
كلية العلوم الانسانية والاجتماعية
قسم التاريخ

النشاط العسكري الإسباني في المغرب الأوسط خلال القرنين 15- 16

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر
في تخصص: تاريخ المغرب الحديث والمعاصر

من إعداد الطالبتين:
- بغور صليحة
- عويسي حنان

تحت إشراف الأستاذ:
* بن شعبان السبتي

لجنة المناقشة

الاسم و اللقب	الرتبة	الصفة	الجامعة
قدادرة شايب	أستاذ التعليم العالي	رئيسا	8 ماي 1945 قالمة
بن شعبان السبتي	أستاذ م" أ "	مشرفا و مقررا	8 ماي 1945 قالمة
غربي حواس	أستاذ. د	عضوا مناقشا	8 ماي 1945 قالمة

السنة: 2020/2019

شكر وتقدير

قال الله تعالى: "ربي أودعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في بادك الصالحين"

سورة النمل الآية 19

في البداية تحمد ونشكر الله عز وجل الذي هدانا ووفقنا إنجاز هذا العمل المتواضع والصلاة والسلام على من بعث رحمة للعالمين

كما نتوجه بالشكر الجزيل إلى كل من مد لنا يد العون لإنجاز هذا العمل المتواضع سواء من قريب أو من بعيد ونخص بالذكر الأستاذ بن شعبان السبتي الذي تابع عملنا هذا ولا يفوتنا أن نتقدم بجزيل الشكر والعرفان إلى كل أساتذة قسم التاريخ على صيرهم معنا طوال مدة دراستنا وإلى كل عمال الجامعة من أساتذة وإداريين على المساعدات التي قدموها لنا في يحثنا هذا

بغور صليحة- عويسي حنان

إهداء

الحمد لله الذي وفقنا لهذا وما نكن لنصل إليه لولا فضل الله علينا

إلى من نزلت في حقهم الآية الكريمة: "وقضى ربك ألاتعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا" [سورة الإسراء: 22- 23]

أهدي هذا العمل المتواضع إلى أبي وأمي العزيزين حفضهما الله لي اللذان سهرا وتعبا على تعليمي ليبصراني في يومي هذا أبلغ أول إنجازاتي.

إلى كل إخوتي سندي في الحياة والذي لا أحصي لهم فضل مريم أحلام إسراء نصيرة حمزة

إلى أبناء إخوتي شهاب أسيل إسلام إلين جاسر

إلى الذي علم والدي حرفة البناء فبفضله لم ننم يوما ونحن جياع

إلى التي علمت والدتي حرفة حياكة الصوف فلفضلها لم يمر علينا عيد إلا ونحن في أجمل حلة إليكما جدي عويسي مسعود وجدتي قروف فاطمة الزهراء رحمكما الله وأسكنكم فسيح جناته

إلى أساتذتي الكرام وعلى رأسهم أستاذي المشرف بن شعبان السبتي لإشرافه علينا لإنجاز بحثنا هذا وعلى توجيهاته القيمة لنا.

إلى أولئك الأبطال الذين استشهدوا دفاعا عن هذا الوطن وعقيدته أبناء يعقوب خيرالدين وعروج، أبطال المقاومة الجزائرية، أبطال ثورة التحرير

إلى كل هؤلاء الذين صنعوا مجد الجزائر ورفعتها.

إليكم جميعا أهدي هذا العمل المتواضع.

حنان

إهداء

إلى ملاكي في الحياة ومعنى الحب والحنان، إلى من جعلت الجنة تحت قدميها، إلى بسمة حياتي وسر وجودي ودعاؤها سر نجاحي، إلى أغلى وأعز الحبايب "أمي الغالية" حفظها الله وأطال عمرها.

إلى من أحمل اسمه بكل افتخار، إلى من علمني العطاء بدون انتظار، إلى أروع وأحن أب في العالم "أبي الغالي" أطال الله في عمره.

إلى من كان سندا وعونا لي طيلة هذا العمل إلى زوجي العزيز نبيل وإلى كل عائلة عويسي.

إلى من محبتهم تجري في عروقي ودمي إلى الورقة المسطرة في قلبي التي أحملها أينما سرت إلى إخوتي: عبد الرزاق، نجم الدين، وسميرة.

إلى أعز صديقة التي قاسمتني هذا العمل المتواضع "حنان"

إلى اللواتي عرفت معهن معنى الصداقة الحقيقية، بشرى، سهام، أميرة، سميرة.

إلى من يحبهم قلبي ولم يذكرهم قلمي ولساني إلى كل هؤلاء أهدي هذا العمل المتواضع

صليحة

مقدمة

بعد بداية القرن الخامس عشر بدا واضحا أن المغرب الأوسط يعاني الضعف والتلاشي بسبب الأوضاع السياسية التي يسودها التمزق والحروب الأهلية بين أفراد العائلة المالكة إلى جانب التناحر بين ممالكة في حروب مدمرة مما أضعف السلطة المركزية وشجع بعض القبائل على القيام بالعصيان، هذه الأوضاع المتردية وشجع بعض القبائل على القيام بالعصيان، هذه الأوضاع المتردية شجعت الإسبان والبرتغال على احتلال مدنها الساحلية. وكانت الانطلاقة الاستعمارية في الغرب الجزائري في كل من مدينة وهران والمرسى الكبير نتيجة لتعاون بعض قبائل هذه المنطقة مع الإسبان.

وبعد الفترة من الحكم الإسباني المستبد توصل أعيان مدينة الجزائر لفكرة أنه يستحيل التصدي والوقوف في وجه الاحتلال الإسباني، بعدها لجأوا إلى الاستنجاد بالإخوة بربروس وهذا ما حدث فعلا، فبقدوم الإخوة بربروس تغيرت الأوضاع وتم إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية رسميا وبذلك امتد الحكم العثماني شرقا وغربا وذلك لتحرير كامل المناطق والثغور الإسبانية من التواجد العسكري الصليبي.

ومن خلال اطلاعنا على بعض المواضيع شد انتباهنا هذا الموضوع الذي يدور حول فكرة النشاط العسكري الإسباني في المغرب الأوسط خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر وكانت هناك جملة من الأسباب والدوافع التي دفعتنا لاختيار هذا الموضوع قبل كل شيء هو الدافع الذاتي والفضول القوي من أجل الاطلاع الوافي على تاريخ المغرب الأوسط خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر، إلا أن البحث والكتابة في موضوع بهذه الأهمية لابد أن ترافقه دوافع علمية بحتة من أجل إنجاز دراسة تاريخية موضوعية من بينها ما يلي:

- دراسة مختلف الأوضاع السائدة في المغرب الأوسط نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرم السادس عشر.

- التعرف على العلاقة بين القبائل في مختلف أقطار المغرب الأوسط شرقا وغربا.
- معرفة مدى مساهمة الإخوة بربروس في فرض الاستقرار داخل المنطقة وعلاقتهم مع مختلف القبائل.
- تبيان دور العثمانيين في تحرير مدن المغرب الأوسط من الاحتلال الإسباني.
- التعرف على مختلف الاستراتيجيات العسكرية والسياسية الإسبانية داخل المغرب الأوسط.
- معرفة السبب والدافع وراء كل هذا الحقد الدفين تجاه المغرب الأوسط وكل شمال إفريقيا.
- إثراء مكتبة الجامعة بدراسة عن تاريخ المغرب الأوسط ودور العثمانيين في تحريره من الاحتلال الإسباني.

أما الإشكالية التي يقوم عليها الموضوع جاءت كما يلي:

- ما الدافع وراء تحول اتجاه النشاط العسكري الإسباني من أوروبا نحو شمال إفريقيا بالتحديد المغرب الأوسط؟
- ما طبيعة السياسة الاستعمارية الإسبانية في المغرب الأوسط؟
- فيما تمثلت ردود فعل هذا الاحتلال ونتائجه على مختلف المدن المحتلة وعلى كامل التراب الوطني؟
- ما هي الظروف التي سمحت بتواجد الإخوة بربروس على سواحل المغرب الأوسط؟
- وكيف كانت مواجهتهم لمختلف الحملات الإسبانية؟

وقد احتوى بحثنا على مقدمة وأربع فصول وخاتمة

فصل تمهيدي تحدثنا فيه عن تراجع قوة المغرب الأوسط والأوضاع الداخلية والخارجية قبيل الاحتلال.

أما الفصل الأول فقد خصصناه للحديث عن ظهور النوعة الاستعمارية الإسبانية والأسباب والدوافع لذلك الاحتلال كذلك بداية الحملات العسكرية على سواحل المغرب الأوسط والنتائج وردود الفعل التي ترتبت عنها.

أما الفصل الثاني فقد تناولنا فيه كيفية ظهور الإخوة بربروس على سواحل شمال إفريقيا وتطرقنا كذلك لمحاولة تحرير المستعمرات في شرق وغرب المغرب الأوسط.

أما الفصل الثالث والأخير فقد تطرقنا فيه إلى مواجهة خير الدين للمشروع الإسباني وتحدثنا فيه كذلك على مشروع التوسع الإسباني ومدى نجاحه، وفي نهاية الفصل تطرقنا إلى اتفاقية السلام بين العثمانيين والإسبان.

وتوج بحثنا بخاتمة تضمنت جملة من النتائج والاستنتاجات احتوت على الأفكار العامة التي تمثل العناوين الكبرى لهذه الدراسة.

وفي سعينا للإجابة عن الإشكالية الرئيسية التي طرحناها مسبقا اعتمدنا على المنهج التاريخي الوصفي الذي سمح لنا من تتبع الأحداث التاريخية من خلال أخذها من المصادر والمراجع التي اعتمدنا عليها، كما لم تخلو هذه الدراسة من التحليل متبعيه فيها المنهج التحليلي من خلال التطرق إلى بعض الأحداث والمواقف.

وأهم المصادر التي اعتمدنا عليها في بحثنا هذا:

- أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمئة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492- 1792.
- أحمد بن عبد الرحمان الشعراني الراشدي، القول الأوسط في أخبار بعض ما حل بالمغرب الأوسط، تحقيق ناصر الدين سعيدوني، بيروت، 1995.
- كورين شوفاليه، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر 1510- 1541، ترجمة جمال حمادة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ت.

كذلك مجموعة من المراجع أهمها:

- الجيلالي عبد الرحمان، تاريخ الجزائر العام، دار الثقافة، بيروت، 1983.
- محمد دراج، الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس 1512- 1543، تصدير ناصر الدين سعيدوني، الجزائر، 2012.
- حسن مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته من قبل الفتح الإسلامي إلى الغزو الأوروبي، العصر الحديث انثر، بيروت، 1992.

خلال دراستنا للموضوع واجهتنا مجموعة من العراقيل والصعوبات نذكر منها:

- قلة المصادر والمراجع وصعوبة الحصول عليها في المكتبات واستحالة التنقل للبحث عن المادة العلمية بسبب الظروف الراهنة لانتشار فيروس كورونا والذي كان سببا في عدم قدرتنا على الحصول على الكم الوافي من الكتب والمعلومات.\
- عدم احتواء مكتبة الجامعة على كتب ومراجعة تخص موضوع بحثنا وفي الأخير بالرغم من تمكننا من تجاوز هذه العقبات وتقديم هذا العمل المتواضع الذي نرجو أن يكون في المستوى إن شاء الله.

الفصل التمهيدي: أوضاع المغرب الأوسط قبيل الاحتلال الاسباني

المبحث الأول: تراجع قوة المغرب الأوسط

لقد كان المغرب الإسلامي ككل والمغرب الأوسط خاصة قد تعرض لمجموعة من التحولات منذ الأيام الأولى للفتح، وإذا كانت الموجة الأولى للفتح قد وحدت بين مراكز القوى المختلفة فإن انهيار الحكم الأموي وقيام الحكم العباسي والأموي في الأندلس قد أدى إلى نوع من التمزق المؤقت الذي ما لبث أن تمخض عنه حركات الفاطميين التي ترعرعت في المغرب الإسلامي قبل أن تنتقل إلى مصر، ولعل أفضل تغير لتلك الحركات الإصلاحية هو ظهور المرابطين، ثم الموحدين أبناء عبد المؤمن، ولم يكن ظهور هذه الحركات ونطورها سلميا وإنما رافقها عنف دموي ما لبث أن ترك رواسب عميقة[1]، وكان لابد لها من أن تتفاعل لتأخذ أبعادها في التأثير عن مستقبل المغرب الإسلامي إذ ما كادت دولة الموحدين أن تضعف حتى ظهر نوع من استقلال مراكز القوى الناجم عن ضعف المركزية فكان من أبرز مراكز القوى في بلاد المغرب الإسلامي.

- مملكة بني حفص التي اتخذت من تونس قاعدة لها، فكانت حدودها تمتد من طرابلس حتى شرقي الجزائر في المفهوم الحالي للحدود، عاشت الدولة 312 سنة من 1229 إلى غاية 1541م.
- مملكة بني زيدان وقد جعلوا من وسط المغرب الأوسط وغربها مقرا لهم وقاعدة لكيانهم وظلت قائمة مدة 294 سنة من 1236م إلى غاية 1393م.
- مملكة بني مرين وقد جعلوا من المغرب الأقصى قاعدة لهم ومستقرا ودامت 358 سنة من 1196م إلى 1554م وانتهت سلطتها على الجزائر عام 1393م.[2]

وقد ساعد الانحلال في أواخر القرن الخامس عشر (15) على غزو بلاد العرب من طرف الأجانب فقد أصبح شرقي المغرب وأوسطه وأقصاه بسبب هذه الفوضى عبارة عن

[1] الميلي محمد بن مبارك، تاريخ الجزائر القديم والحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص 12.
[2] جوليا شارل أندري، تاريخ إفريقيا الشمالية، تونس، الجزائر، المغرب الأقصى من الفتح الإسلامي إلى سنة 183م، ترجمة مزلي محمد، وبن سلامة البشير- ج2، ط2، الدار التونسية للنشر، ص 321.

فسيفساء سياسية بانقسام مملكة بني عد الواد (بني زيان) في تلمسان ومملكتي بني حفص وبني مرين إلى عدد لا يحصى من الإمارات والقبائل أو مجموعة مستقلة ومناطق نفوذ الأولياء، وقد أقامت الموانئ أنواعا من الجمهوريات بدأت في ممارسة النشاط البحري[1]، وقد بقيت هذه الكيانات قوية، صلبة حتى إذا ما استنزفت قدراتها في الحروب الداخلية والخارجية ووصلت إلى مرحلة من الإنهيار المريع الذي فتح المجال أمام المزيد من التمزق فأصبحت الأقلية الحاكمة على استعداد للتعاون مع أي سلطة أو قوة داخلية أو خارجية للمحافظة على وجودها على الرغم من ظهور هذه التحولات العنيفة في بعض الأحيان فإن الإمارات لم تفكر في القيام بأي نشاط قد يعيد لها نفوذها وقوتها باستثناء محاولة بنو مرين للسيطرة على المغرب الإسلامي بكامله، لكنهم اصطدموا بقوة الحفصيين الذين كانوا يعتبرون أنفسهم الورثة الشرعيين للموحدين وأدى ذلك إلى صدامات دامية لم تحقق الهدف المنشود في توحيد المغرب الإسلامي إنما أدت إلى نتيجة مضادة تماما، إذ استنزفت الدولتين معا، وخلال هذا الصراع المرير كان على الزيانيين في المغرب الأوسط دفع ثمن التمزق عن طريق التناوب في الخضوع لهؤلاء ولأولئك تبعا لتغير موازين القوى إما انهيار بذلك أقوى دعم للأندلسيين وهم المرينيون الذين قدموا الدعم طوال حروب الاسترداد وتحول جبل طارق إلى مركز لتجميع المتطوعين للجهاد في بلاد الأندلس.[2]

المبحث الثاني: الأوضاع السياسية والعسكرية

عاشت بلاد المغرب العربي التقهقر والفوضى والإنحلال هذه هي الكلمات التي تلخص لنا الحالة العامة لبلاد المغرب العربي بصفة عامة، والمغرب الأوسط بصفة خاصة فبينما كانت إسبانيا قد حطمت آخر ممالك المسلمين ببلاد الأندلس وبينما كان نجم الدولة العثمانية الإسلامية يعلو وينمو، وكان الملوك المسيحيين يجمع صفّه ويوحد قواه ويستعد

[1] جوليا شارل أندري، المرجع السابق، ص 322.

[2] Villiers (pauline) marine rogale, corsaires.trafic dans l'atlantique de louis XIV à louis XVI, PR. Esses. Universitaires de spt entrion, lille, 1991, p- p 120.

للمعركة الحاسمة ضد الإسلام والمسلمين، كان المغرب العربي مقسما نظريا إلى ثلاث دول متصارعة ومتنافسة فيما بينها:

- دولة بني حفص بتونس [طرابلس و شرق جزائر]
- دولة بني زيان [بالوسط و الغرب من أراضي الجزائر]
- دولة بني مرين [بالمغرب الاقصى]

ولكن هذه الدول قد سقطت في الانقسامات والحروب الداخلية بين الطامعين في العرش من أفراد الأسرة الحاكمة نفسها.[1]

وقد ذهبت دولة بني زيان التلمسانية ضحية محاولات الحفصين ومحاولات المرينيين معا[2]، فكل من الجانبين كان يرى وجوب سحقها والاستيلاء على أراضيها، فقد استنزف ذلك قواها المادية والمعنوية وعجَّل بها إلى مهاوي الانحطاط ثم الاضمحلال.[3]

ومنذ بداية القرن الخامس عشر أخذت يد الاستعمار المسيحي تطرق أبواب المغرب بشدة، حيث تطاولت أيدي الإسبان إلى مدينة تيطوان سنة 1400م فأخذتها و حطمتها و قتلت النصف من سكانها و ساقت الباقين من رجالها و نسائها كأسرى إلى إسبانيا في حين كان ملك المغرب ابو سعيد عثمان يحارب مملكة بني زيان بتلمسان من أجل إرغامها على التبعية لبني مرين فاحتل تلمسان و طرد ملكها أبا زيان، و نصَّب مكانه أبا محمد عبد الله.[4]

ويلخص هذه الحالة المؤرخ العسكري الفرنسي "بينو" فيقول في الجزء الثالث من كتابه "تاريخ إفريقيا الشمالية": "أن العائلات المالكة الحفصية و الزيانية و المرينية التي كانت قبل ذلك تلمع لمعانا منيرا، قد انغمست في حروب طويلة مزمنة، ورَوَت أرض هذه البلاد (المغرب العربي) بالدماء، ثم سقطت في مهاوي الانحطاط، فطوال قرن كامل لم يبق لأمراء

[1] أحمد بحري، الجزائر في عهد الدايات، دراسة للحياة الاجتماعية إبان الحقبة العثمانية، دار الكفاية، الجزائر، 213، ج 3- د ط، ص 43
[2] المرجع نفسه، ص 43، 44.
[3] عبد الله جمال الدين، تاريخ المسلمين في الأندلس، شكرة سفير، القاهرة، د س ن، د ط، ص 106.
[4] يحي بوعزيز، المجز في تاريخ الجزائر الحديثة، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر، 2007، ج2، ص 14.

هذه العائلات المالكة من السلطة إلا اسمها، وكان الملوك لا يفكرون إلا في إحباط المؤامرات والفتن التي يثيرها ضدهم أفراد من عائلاتهم من أجل الاستيلاء على العرش، أو في إخماد الثورات التي يقوم بها القبائل سئمت حكم العجز والطغيان، ولقد ضربت الفوضى أطنابها في كل مكان، فسكان قسنطينة وسكان مدينة الجزائر وأهل الشرق الوهراني لم يبقوا معترفين بسلطة أحد عليهم، أما بالمغرب الأقصى فإن أمراء عائلة بني مرين قد اقتطع كل واحد منهم لنفسه إمارة صغيرة لم يكن في وسعه الدفاع عنها ضد مطامع جيرانه، فهذه الفوضى قد سهلت بصفة عامة وغريبة مهمة البرتغاليين والإسبانيين، سواء في احتلال البلاد أو في توسيع منطقة نفوذهم فيها".[1]

ويقول المؤرخ "ف. أ بروديل"، في بحثه القيم الثري المنشور بالمجلة الإفريقية سنة 1921م، عن وصف حالة مغربنا العربي في مفتتح القرن السادس عشر إن جاسوسا من الجواسيس الذين أرسل بهم "فرديناندو" إلى بلاد المغرب العربي قد أرسل إلى ملكه تقريرا مفصلا جاء فيه: "إن كامل بلاد شمال إفريقيا يجتاز فترة انهيار نفسي يظهر معها إن الله قد أراد أن يجعل هذه البلاد ملكا لصاحبي الجلالة المسيحية"[2]

ويقول "ليون" الإفريقي في كتابه "وصف إفريقيا": "كانت وهران تبدو أواخر القرن الخامس عشر، وهي تحت السلطة الإسمية لبني زيان في صورة جمهورية تجارية حقيقة مستقلة".

أما مدينة بجاية فقد كانت في نفس ذلك العصر تكتسب ثروة طائلة وبصفة مستقلة من التجارة الواسعة التي كانت تتعاطاها مع البلاد الطليانية، ومن القرصنة...

وكانت مملكة تلمسان تشمل بصفة غير محدودة الغرب الجزائري الحالي، وكان رجال الدولة أواخر القرن الخامس عشر قد تحرروا من السلطة المركزية، فكان أعداء الملك لا

[1] أحمد البحري، الجزائر في عهد الدايات، المرجع السابق، ص 44.
[2] يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر الحديثة، المرجع السابق، ص 17.

يجدون صعوبة في جمع الأنصار لمحاربة السلطان القائم، وكان الأبناء يثورون ويخلعون آباءهم، كما كان الأبناء يحاربون بعضًا لاقتسام ملك أبيهم.

أما مؤرخونا الجزائريون فيقولون عن هذه الحالة البائسة ما يزيد هذه الصورة بشاعة وشناعة، فيقول الأستاذ عبد الرحمان الجيلالي في كتابه "تاريخ الجزائر العام" ج2، ص 181: "لقد أخذ صرح بني عبد الواد يتساقط منذ أن ركن ملوك هذه الدولة من بني زيان إلى التواكل والتخاذل وإخلادهم إلى الدعة، واستمهادهم الراحة وتثاقلهم عن القيام بالمصالح العامة، وانهماكهم في التهالك على الرئاسة، وقصر اشتغالهم على أنفسهم شخصيا، فمحيت يومئذ هيبتهم وانتشرت الفوضى بين الناس في كل ميادين السياسة والاجتماع، واستبد الولاة ورؤساء القبائل والشيوخ وعمال الجهات وولاة النواحي وقادة الجيش... وملوك الإسبان يومئذ يترصدون مثل هذه الأمور خلسة ويترقبون الظروف المواتية للقضاء على الدولة الاسلامية.[1]

ويقول "مبارك الميلي" في كتابه "تاريخ الجزائر القديم والحديث الجزء 02": فإن الدولة الزيانية منذ نشأتها لم تزل تصطلي بنار الحروب الداخلية والخارجية، فمن ارة مرينية إلى حرب حفصية ومن مناهضة توجينية إلى منافسة الزيانية، ومن دسيسة سويدية (أي من قبائل سويد) ....إلخ.[2]

المبحث الثالث: الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية

لم تكن بأحسن حال من سابقتها، فالحديث عن الوضع الاجتماعي للمغرب الأوسط في أواخر القرن الخامس عشر 15م هو الحديث عن مغرب مشتت وممزق ومقسم إلى إمارات قبلية وبطون وقبائل مختلفة ومتنوعة وموزعة على هذه البلاد، فقد استقل بنو عبد الواد بتلمسان وضواحيها[3]، أما بقية البلاد الوسطى الجنوبية وكانت مقسمة إلى إمارات قبلية عديدة "كمشيخة" مدينة الجزائر التي حطمها الثعالبة، وإمارة كوكو بجبال القبائل الكبرى

[1] محمد خير فارس، تاريخ الجزائر الحديث منذ الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي، مكتبة دار الشرف، بيروت، د ط، 1979، ص 26.
[2] المرجع نفسه، ص 27.
[3] بوزياني الدراجي، نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزيانية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993، ص 25.

وإمارة قلعة بني عباس ببلاد القبائل الصغرى، وإمارات أخرى مستقلة كإمارة بني المهلهل وإمارة عائلة بوعكاز بجهات الحضنة وبلاد الزاب، بالإضافة إلى وجود العديد من القبائل العربية والبربرية، فمن القبائل العربية نجد قبيلة الثعالبة في سهل متيجة، وقبيلتي الضحاك وعياد بجهة برج حمزة، وقبيلة حسن وعطاف وسويد في منطقة الهضاب، وبني عبيد الله والمعاقيل في الناحية الغربية[1]، ومن القبائل البربرية توجد زواوة وصنهاجة بجبال جرجة ومغرارة وتوجين بجبال مليانة وجبال الونشريس إضافة إلى قبائل فطين وبني ميزاب في الهضاب والواحات.[2]

كما تواجد اللاجؤون الأندلسيون وطائفة اليهود الذين ازداد توافدهم خلال القرن الخامس عشر 15م بفعل سقوط غرناطة ومطاردة الاسبان لهم.

هذا التنوع والتشتت في التركيبة الاجتماعية في ظل غياب سلطة مركزية وإن كانت موجودة اسميا – الدولة الزيانية– جعل البلاد تعيش اختلالا اجتماعيا صاحبه سوء الأحوال الصحية والمعيشية وتخربت أثناءه المدن وافتقرت الأرياف، فقد قتل العديد من الرجال سبب الحروب وترملت النساء وانتشرت اللصوصية والظلم والغضب والأوبئة والمجاعات.[3]

وهذا الأمر أدى إلى هجرة العديد من السكان سواء إلى المغرب الأقصى أو إلى تونس أو إلى البلاد العربية الأخرى، أو إلى المناطق الجبلية أو الداخلية البعيدة عن الصراعات مما أدى ذلك أيضا إلى انعدام الأمن وعدم الاستقرار السياسي فانتشرت الفوضى بين الناس في ظل ميادين الحياة وفي مختلف أرجاء البلاد.[4]

وفي المجال الاقتصادي فقدت بلاد المغرب الأوسط أهميتها التجارية بالبحر الأبيض المتوسط وباعتبارها همزة وصل ما بين السواحل والمناطق الصحراوية بفعل الاكتشافات

[1] عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، دار الثقافة، بيروت، ج2، ط2، 1983، ص 197.
[2] بوزياني الدراجي، نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزيانية، المرجع السابق، ص 207.
[3] كورين الشوفاليه، الثلاثون سنة الأولى بقيام دولة مدنية الجزائر (1520- 1541)، تر جمال حمادنة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د س، ص 06.
[4] عبد العزيز الفيلالي، تلمسان في العهد الزياني، المؤسسة الوطنية للفنون، الجزائر، ج2، 2002، ص 496.

الجغرافية الأوربية للطرق والممرات الجديدة، وأدى عدم الاستقرار السياسي والاجتماعي وغياب الأمن إلى هجرة الفلاحين لأراضيهم وقلة الانتاج الزراعي وتوقفت الحركة التجارية الداخلية وتدهورت بالتالي الأوضاع الاقتصادية للبلاد.[1]

خلاصة:

كانت الحالة العامة السياسية والاقتصادية والثقافية في أواخر القرن الخامس عشر حالة من التأخر والانحطاط في إمارات شمال إفريقيا كلها بسبب الفوضى وعدم الاستقرار وعدم الانتباه للأخطار المحيطة بهم من جانب الأعداء القادمين من الضفة المقابلة للبحر الأبيض المتوسط، كانت إسبانيا على دراية تامة بهذه الأوضاع وربما لها يد في ما كان يقع من تناحر كمقدمة لتنفيذ مخطط طويل الأمد السيطرة على المنطقة وفي ظل هذا ظهر المشروع المسيحي البرتغالي الإسباني الذي وضع أهداف استراتيجية تدفعها الحاجة الاقتصادية والحقد الديني، فنشطت الحملات الصليبية وثم احتلال العديد من المناطق الساحلية بدعوى محاربة القرصنة، لكن في نهاية الأمر انكمشت هذا الوجود خلف أسرار ولم يتعدى مساحة الموانئ كما ظل محصورا إلى حين انهيار النظام الاستعماري لولا تعاون بعض القبائل التي أبقت على الوجود الإسباني ولو لفترة وجيزة وشبه أحد المؤرخين بالأخطبوط لقد كان الوجود الإسباني يشبه إلى حد كبير الأخطبوط الذي سحب من الماء ووضع داخل وعاء يسقى يوميا بجرعات، إن توقفت أصيب بالشلل التام.[2]

[1] عبد العزيز الفيلالي، المرجع السابق، ص 497.

[2] أليتش بروشين بنكولاي، تاريخ ليبيا من منتصف القرن السادس عشر حتى مطلع القرن 20، ترجمة: عماد حاسم، ط2، دار الكتاب الجديدة المتحدة، طرابلس، 2001، ص 25.

الفصل الأول: بداية المشروع الإسباني لاحتلال المغرب الأوسط

تمهيد:

كان المشروع الإسباني عبارة عن تكملة لما سبقها من المحاولات الأوروبية لاحتلال مناطق شمال إفريقيا، لكن وجود قوى مثل دولة الموحدين حالت دون نجاح المشروع وتنفيذه وبعد توحد دولة إسبانيا وطرد المسلمين من الأندلس تم إعادة إحياء وبعث الروح في المشروع الذي انطلق مع أول الحملات الصليبية على شمال إفريقيا والتي قام بها ملك أرغون بيار الثالث (pier3) سنة 1277م، الذي سيَّر حملة بحرية هاجمت السواحل الإفريقية الشمالية ودخلت من مضيق جبل طارق وقضت على أسطول السلطان المغربي وبعدها بخمس سنوات قاموا بمحاولة ثانية، وتم احتلال منطقة القل، وفي عام 1309م قامت قشتالة وأرغون بإعداد حملة مشتركة تجاه مدينة سبتة التي كانت تابعة لسلطان غرناطة وكنتيجة لموقف جنوده المساند لهذه الحملات بدأت العلاقات بينها وبين الحفصيين تتدهور ووصلت إلى حد القطيعة نهاية القرن الرابع عشر مما دفع جنوده إلى إعلان الحرب عليهم عام 1388م، وتمكن أسطول الجنود من احتلال جزيرة جربة وقرروا التحالف مع فرنسا بالتحديد شارل السادس (charles 6) لإعداد حملة صليبية هدفها القضاء على مدينة المهدية التي كانت تشكل مركز للعمليات البحرية الإسلامية، غير أن الحملة فشلت نتيجة حرارة الجو والهجمات اليومية بعد حصار دام واحد وستون (61) يوما، هذه الحملات كانت آخر الحملات الأوروبية المشتركة ليفسح المجال لدولتين ظهرتا على الساحة الإسبانية والبرتغالية.[1]

وفي كل هذا الصراع ظهرت إسبانيا التي بنت سياستها على الضغط على ملوك المغرب إلى حين دفعهم لقبول الحماية الإسبانية، وبعد سقوط غرناطة أصبحت الحملات الإسبانية أكثر تنظيما مما مكن الإسبان من إعداد الحملة بقيادة (دييغو دوكور دوي diego decor doue) الذي تمكن من السيطرة على المرسى الكبير والمدينة عام 1505- 1508م

[1] عمر محمد عبد العزيز والقوزى محمد علي، دراسات في تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر 1815- 1950م، دار النهضة العربية، بيروت، 1999، ص 13- 14.

ووضعت حامية بها ثم قام الأميرال (بيدرو نفار pedro navarre) الذي أصبح قائدا على صخرة الميناء (penôn de veleg) على سواحل المغرب الأقصى، وبعد السيطرة على وهران من قبل الكاردينال خمينيس[1] وفي عام 1510م استكمل "بيدرو نفارو" المخطط باحتلال بجاية ووضع حامية كبيرة بها وبعد هذه الحملات أصبحت أغلب المدن المغاربية بالخوف واعترفت بالحماية الإسبانية وتعهدوا بدفع أموال (tribat)[2] تمت السيطرة على طرابلس في العام نفسه وألحقت بنائب الملك بصقلية كما حاول (بيدرو نفارو) مع (قارسيا دو توليدو garcia de toledo) بمهاجمة جزيرة جربة التي أصبحت ملتقى القراصنة، غير أن الحرارة الشديدة وتجمع قواته حول آبار الماء مكنت المسلمين من إلحاق الهزيمة به وبقيت جربة بهذه الحال إلى غاية وصول الإخوة أبناء يعقوب الذين كان لهم الفضل في التصدي للمشروع الإسباني ومن ثم تحرير الثغور الإسلامية.

استندت هذه العمليات السريعة إلى مشروع وضعته الملكة (إيزابيلا) إذ قامت بإعداد مخطط للبدء في عمليات الغزو فجمعت المعلومات عن سواحل إفريقيا الشمالية بواسطة المهندس البحري البندقي (جروينمو فيانيللي) الذي كلفه الكاردينال خمينيس بالإنتقال إلى السواحل الإفريقية وبناء على ملاحظاته جندت جيشا قوامه 12000 جندي تحت قيادة الكونت (دي تنديليا detendilla) حاكم غرناطة وتبرعت براتب من مالها الخاص لكن موتها سنة 1504م أوقف المشروع مؤقتا وتركت وصيتها بأنه ينبغي إيقاف غزو إفريقيا ولا إنهاء الصراع ضد الكفار من أجل العقيدة وكان الكاردينال خمينيس هو من تحمل مسؤولية إتمام المشروع.[3]

---

[1] Contereras (J) et dedien (J.P) formation de l'inquisition espagnole, 1470- 1820, Espagne, 1980, p p 37-39.

[2] Tribat ضريبة المال: هي ضريبة عينية ونقدية تقدر بعدد رؤوس السكان يسميها السكان بالضريبة الرومية أو الزكاة الرومية.

[3] نايت بلقاسم مولود قاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830، ج1، ط3، دار البحث للطباعة والنشر، الجزائر، 1985، ص ص 51، 55.

المبحث الأول: ظهور النزعة الاستعمارية الإسبانية:

بدأ ظهور إسبانيا كدولة مع تولي ملك قشتالة "جون الثاني" في الحكم عام 1419م والذي تميز حكمه بالضعف وعدم قدرته على مواجهة الإضطرابات، أما في أراغون فقد تولى "ألفونس الخامس" من الكم خلفا لأبيه علم 1416م وفي تلك الآونة كان حكم المسلمين في الأندلس ينهار أمام سياسة الإقتطاع، فسعى أمير غرناطة "محمد الصغير لمصالحة ملك قشتالة للحصول على تأييده وبفضل هذه المساعدة أصبح "محمد أمير" على غرناطة كما تحول إلى تابع للملك "جون الثاني" الذي بدأ يضع سياسة توسعية تقوم على الحجج القائلة بأن العمليات العسكرية يجب أن تتجه إلى احتلال نقاط ارتكاز على ساحل إفريقيا قصد القيام بعمليات مراقبة دائمة وسريعة لحماية الملاحة البحرية، إلا أنه سرعان ما جمدت المشاريع الاستعمارية عام 1466م نتيجة اندلاع الثورات في قشتالة، وأعلن قادة التمرد "ألفونس" شقيق الملك "أنريك" الملك عليهم[1].

وحاول المتمردون جر "إيزابيلا" شقيقة الثورة، غير أنها رفضت التمرد على الملك وأما فشل محاولات القضاء على التمرد رضخ "أنريك" لشروط المتمردين بالإعتراف في سبتمبر 1468م بإيزابيلا وريثة شرعية له بدلا من ابنته، وتم زواج "فرديناند" ابن الملك "جون الثاني" ملك أرغوان و"إيزابيلا"، وهو الزواج السياسي الأكثر تأثيرا في العلاقات الأوروبية وكذلك العلاقات الإسلامية المسيحية إذ سيحقق إسبانيا الكثير من المكاسب.[2]

بعدها انتقل الحكم إلى "إيزابيلا" وبوفاة الملك "جون الثاني" ملك نفار وأرغوان وانتقل الملك إلى ابنه "فرديناند"، اتحدت اسبانيا فأصبحت المسيحية تحتل رقعة واسعة وانطلقت سياسة توسيع المملكة من خلال طرد المسلمين وغزو إفريقيا والكشف الجغرافي في العالم

[1] كان هذا التمرد نتيجة لرغبة الملك أنريك في توريث العرش لابنته "جوانا" والتي كانت ستتزوج بملك البرتغال مما يعني ذهاب عرش قشتالة إلى أسرة غير قشتالة.

[2] Gaignard (atherine): maures et chrétiene a grende 1492- 1570, edition le temps, lesbone, 1989, p p 14, 16.

الجديد وبدأ الملوك الكاثوليك وهو الاسم الذي اتخذه "فرديناند وإيزابيلا" لمواجهة القضية الأساسية، قضية الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبرية، واعتقد أمير غرناطة أنه بدفع ضريبة تمكن له استمالة الملكين والإحتفاظ بملكه، غير أن المبلغ الذي طالبت به الملكة كان باهضا وتعجيزي، وكان هذا الرد الرافض بمثابة إعلان حرب تأتي في ظروف خاصة بالنسبة للمسلمين، إذ وقعت قشتالة إتفاقية سلام مع البرتغال وتغرغرت لهم وتمكن الجيش المسيحي القشتالي من تحقيق بعض التقدم.[1]

بعدها تم إقرار تغيير مجريات المواجهات العسكرية المتقطعة لتأخذ شكل حرب منظمة مرتبة، فلجأ أمير غرناطة لطلب المساعدة من المرينيين، لكن تحرك إيزابيلا بإغلاق جبل طارق بقوة تجربة عام 1482م حال دون وصول النجدة، في الوقت نفسه كانت المواجهة بين الطوائف قائمة وكان هذا الصراع إيجابيا بالنسبة لملوك إسبانيا إذ تحرروا من المعاهدة للمواجهة والإهتمام نهائيا بغرناطة، والبدء في تطبيق سياسة القضم والهضم في شهر أفريل 1481م، وبعد استعدادات دامت سنوات قرر الملك الإسباني "فرديناند" إنهاء مشكلة غرناطة، فسخر لذلك جيشا قوامه خمسين (50) ألف رجل وبعد حصار دام ستة أشهر قرر الأمير "عبد الله" الإستسلام ووقع المعاهدة في 25 نوفمبر وتعهد بموجبها الأمير "المسلم" بتسليم المدينة خلال شهرين من عقد الإتفاقية.

إلا أن سكان غرناطة رفضوا وقرروا المقاومة، فأصبح لدى الملكين الكاثوليكيين قناعة بضرورة تصفية غرناطة بالقوة وبمجرد دخولها واحتلالها[2] بدأت الأعلام القشتالية تخفق على القصور الإسلامية وتم تنصيب الصليب على المسجد الكبير وبدأت الإحتفالات بالإنتصار النهائي لصليب على الإسلام وخرج الأمير "عبد الله" أمام الملكين وحينما بلغ أعلى قمة مشرفة على غرناطة ألقى نظرة أخيرة على ملكه الضائع وتنهد وصرخ باكيا قائلا:

[1] Gaignard: op- cit, p 127.
[2] Gaignard: op- cit, p 127.

"الله أكبر، فردت عليه أمه: من الجيد أن تبكي كالنساء على ملك لم تحافظ عليه كالرجال"[1]، ومع حلول عام 1493 بدأت سياسة إسبانيا لإفراغ المنطقة من العناصر غير الإسلامية فبدأ بطرد اليهود حيث بلغ عدد الذين طردوا ثلاثمئة (300) ألف نحو مناطق مختلفة بموجب المرسوم 03 مارس 1492م وفق مبدأ أنه ليس هناك دين المسيحية.

ورغم وجود الإتفاقية المتضمنة تسليم غرناطة التي تتضمن احتفاظ المسلمين بحقوقهم الدينية، فإن هذه البنود كانت تتناقض كليا مع رغبة الإسبان في تمسيح كل سكان إسبانيا وظهر على الساحة الكاردينال "خمينيس" الذي أصبح وزيرا أول لدى الملوك الكاثوليك فسعى من أجل إلغاء هذا الإمتياز الذي رأى فيه تناقضا مع المصالح الدينية المسيحية، وكان أول عمل قام به أن جمع جميع المخطوطات العربية العلمية والدينية وحتى الفلسفية، وقام بإحراقها بيده في ساحة المدينة، فإدى هذا إلى ثورة المسلمين في مختلف أنحاء البلاد، فاستغلها الكاردينال لإقناع الملوك الكاثوليك بضرورة طرد المسلمين فبدأ الملك "فرديناند" بتسيير حملة وتمكنت جبل طارق وقادس آخر معقل للمسلمين علم 1499م.[2]

بعدها أجبر المسلمون على الرحيل عن الأندلس إلى شمال إفريقيا والبعض منهم اضطر إلى اعتناق الديانة المسيحية، أما الذين مكثوا في الأندلس فإنهم لم يشهدوا الراحة إذ صدر عام 1502م مرسوما ملكيا بأمر كل المسلمين الذين تجاوزت أعمارهم 14 سنة والمتواجدين في إمارة قشتالة وأراغوان بالرحيل خلال مدة شهرين، وبذلك وضعت الأندلس ضمن الخسائر الإسلامية، واضطر المسلمين الذين فضلوا البقاء إلى عدم تلقين أبنائهم التربية الدينية، حتى يتمكنوا من احتمال المواجهة مع دواوين التحقيق وإذا رفض أحدهم الذهاب إلى الكنيسة يعتبر تلقائيا مسلما وكل حركة لا تمت بصلة إلى التقاليد المسيحية

[1] تلك القمة المشرفة على غرناطة هي الصخرة التي يسميها الإسبان اليوم زخرة العربي.

[2] كارديلاك لوي: المورسيكيون الأندلسيون والمسيحيون، تعريب وتقديم التميمي عبد الجليل، منشورات المجلة التاريخية المغربية، الجزائر، 1983، ص 68.

فسرت كعلامة على اتباع الدين الإسلامي وفرض على المسلمين قاعدة الصمت رغم هذه الأعمال فإنهم استطاعوا الحفاظ على دينهم.[1]

وما أن شعرت حكومة إسبانيا بقوتها حتى أفرزت نتائج منطقية:

النتيجة الأولى: إذ انتقلت إسبانيا من عهد العمل السياسي إلى عهد القوة العسكرية فتوجهت إلى إيطاليا وكانت قد فرضت من قبل سيطرتها على صقلية وجنوب إيطاليا ومدينة نابولي وأرادت توسيع ممتلكاتها هناك مما أدى إلى اصطدامها بفرنسا ووقوع الحرب المعروفة باسم حرب الستين عاما، خاصة إثر تولي شارل الخامس الحكم بإسبانيا.

فعندما توفي الإمبراطور "مكسيمليان" عين الملوك والأمراء "شارل الخامس" خلفا له وبذلك تمكن الإمبراطور جمع بلاد واسعة تحت حكمه ضمت إسبانيا والنمسا وبلجيكا وهولندا وصقلية ومردينيا ونابولي وقسما من ألمانيا أصبح يقف في وجه فرنسا والخلافة العثمانية واستطاع ملك فرنسا "فرانسوا الأول" أن يجد في تحالفه مع العثمانيين قوة كافية تضمن له البقاء والنصر على أعدائه.[2]

النتيجة الثانية: هي الانتقال إلى العمل بالسياسة العالمية من خلال تنظيم العدوان على المغرب الإسلامي، وفي الواقع بدأ هذا العدوان قبل أن تسقط مملكة غرناطة بهدف عزل الأندلس الإسلامية عن قاعدة دعمها في المغرب الإسلامي، ثم تطور ذلك بعد إخراج المسلمين من الأندلس إلى توسع شامل وفق لما تبرزه سياسة دينية مضبوطة.

[1] كارديك لوي، المرجع السابق، ص 68.

[2] مؤنس حسين، تاريخ المغرب وحضارته من قبل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي، الجزء 32، مجلة 2، العصر الحديث للنشر والتوزيع، ط1، بيروت، 1992، ص 350.

النتيجة الثالثة: ظهور عملية التوسع البحري وعمليات الكشوف الجغرافية التي أسهم فيها البحارة المسلمون بقسط وافر، ولكن تحت راية البرتغاليين والإسبانيين التي كان هدفها إيجاد مجال لنشر المسيحية خارج المجال الأوروبي القديم.[1]

المبحث الثاني: أسباب ودوافع الاحتلال الإسباني:

1-الأسباب الدينية:

الأسباب الدينية تعد أقواها نظرا للعداوة التقليدية ما بين الإسلام والنصرانية والتي ترجع في تاريخها إلى بداية الدعوة المحمدية، وانتشار الدين الإسلامي في أقطار العالم، وغذَّى هذا الصراع التعصب الديني الذي دعا إليه رجال الدين المسيحي من قساوسة ورهبان، حيث أشعلوا الحماس الصليبي لدى الجموع الأوروبية عامة والإسبانية خاصة لمحاربة الدين الإسلامي والمسلمين.[2]

فقد دعا البابا "اسكندر السادس* بورجيا الشهير alexandre6 borgia" من مدينة روما عاصمة الكرسي الرسولي أن تسخر البلاد المسيحية طاقاتها المالية والبشرية تحت تصرف ملوك إسبانيا لإبعاد المسلمين عن بلاد الأندلس، ولإخضاع شمال إفريقيا للحكم المسيحي وللديانة المسيحية.[3]

كما عمل الباباوات على تزويد الجيوش المسيحية بالمال والعتاد، فاستجابت إسبانيا للنداء لكونها زعيمة العالم المسيحي وحامية المسيحية آنذاك بعد سقوط الإمبراطورية

---

[1] مؤنس حسين، المرجع السابق، ص 350.

[2] بسام العسلي، خير الدين بربروس، دار النفائس، بيروت، ط3، 1986، ص 59.

*اسكندر بورجيا الشهير من مواليد جاتيفا بإسبانيا سنة 1431م، أصبح بابا من سنة 1492م حتى 1503م، وقد مارس دورا كبيرا حتى أطلق عليه أنه أمير أكثر من بابا أو رجل دين، اشتهر بقسوته في تنظيم الحرب ضد المسلمين، أصدر سنة 1494م عهدا يبارك به الصليبية الإسبانية بإفريقيا. ينظر بسام العسيلي، نفس المرجع، ص 59.

[3] أحمد توفيق المدني، حب الثلاثمئة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492- 1792، وثائق ودراسات المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط3، 1984، ص 82.

البيزنطية على يد العثمانيين سنة 1453م، وضعف سلطة البابا في روما بفعل ظهور حركات الإصلاح الديني في أوروبا.[1]

وكللت هذه الإستجابة بالمصاهرة التي تمت ما بين "فرديناند* الكاثوليكي حاكم أرغوان و"إيزابيلا"** وارثة عرش قشتالة، وبعد أن توحدت إسبانيا الكاثوليكية المسيحية عام 1479م حاملة على عاتقها مهمة تمسيح بلاد شمال إفريقيا الإسلامية.

فبعد سقوط غرناطة غرة ربيع الأول 897هـ/ 02 جانفي 1492م شنت إسبانيا حملات واسعة النطاق ضد المسلمين الأندلسيين، فقد امتثل العديد من الموريسكيين أمام دواوين التحقيق لأنهم كثيرا ما تكلموا أو أظهروا تعلقهم بالإسلام أو انتقادهم للمسيحيين[2]، وانتقاما منهم قام الراهب "هرناندو"*** بتنصير الآلاف من المسلمين، بل وقام الإسبان بتتبع مسلمي الأندلس إلى سواحل شمال إفريقيا للإنتقام منهم.[3]

يحثهم على ذلك الكاردينال "اكزمينيس xemenés" الذي عمل على تمسيح المغاربة حتى يجنب إسبانيا خطرهم، خاصة ونحن نعلم بأن أهل شمال إفريقيا حملوا مهمة مواصلة الكفاح ضد المسيحيين مع الفارين الأندلسيين عقب سقوط غرناطة، فكانوا يعبرون على سواحل الإمارات الإسبانية بلنسية وكتالونيا وغيرها من المدن الساحلية.[4]

---

[1] بسام العسيلي، المرجع السابق، ص 59.

*من مواليد سوز 1452- 1516م تولى الملك سنة 1474م تزوج إيزابيلا ملكة قشتالة ووحد تقريبا كل شبه الجزيرة الأبيرية مما ساعده على القضاء على مملكة غرناطة عام 1492م. ينظر بسام العسلي، خير الدين بربروس، المرجع السابق، ص 44.

** ملكة قشتالة من مواليد مدريد 1451- 1504م تزوجت من فرديناند ملك أرغون مما ساعد على توحيد إسبانيا، عملت على إقامة محاكم التفتيش وشجعتها إبادة المسلمين. ينظر بسام العسلي، المرجع نفسه، ص 45.

*** يعد من أنصار النظام القديم والمتمثل في المحافظة على الوضع كما هو عليه بين الموحدين والمسيحيين القاضي بالإنتصار قبل التعميد. لوي كردياك، الموريسطيون الأندلسيون والمسيحيون المجابهة الجدلية 1492- 1640م، المرجع السابق، ص 111.

[2] لوي كارديالك، نفس المرجع، ص 27.

[3] المرجع نفسه، ص ص 27، 28.

[4] بسام العسلي، خير الدين بربروس، المرجع السابق، ص 60.

ولمنع هذه القرصنة كما سمّاها الإسبان سعى "فرديناند" إلى السيطرة على الموانئ التي يشن القراصنة (الغزاة المغاربة) العمليات منها، كما دعت "إيزابيلا" أن يحققوا أمنيتها الغالية على قلبها ألا وهي فتح إفريقيا وعدم الكف عن القتال في سبيل الدين ضد الكفار، فكان أن أرسلت جواسيسها للتعرف على أوضاع المغرب الإسلامي، فجاء تقرير جاسوسها "فرديناندز أفرا" سنة 1494م كالتالي: "أن كل البلاد في حالة يبدو أن الله أراد أن يمنحها لأصحاب الجلالة"[1].

وتحت ضغوطات الكنيسة وعلى رأسها الكاردينال "اكزمينيس" جهزت إسبانيا أسطولا ضخما لغزو شمال إفريقيا بمباركة من البابا "ألكسندر السادس" عام 1494م، مما يدل على أن العدوان الصليبي هدفه رب الإسلام والمسلمين في هذه البلاد.[2]

فالتعصب الديني والرغبة الجامحة لدى رجال الكنيسة وملوك المسيحية لتنصير المسلمين وإبعادهم عن أراضيهم في الأندلس، وإنقاذ شمال إفريقيا من وحشية الإسلام كما يدعون، كانت وراء تحرك الإسبان في أواخر القرن الخامس عشر (15م) لغزو سواحل الشمال الإفريقي.[3]

2-الأسباب السياسية والعسكرية:

لم تكن أقل خطورة من سابقتها فبعد الاستقرار السياسي الذي عرفته إسبانيا على إثر توحيد مملكتي الكاستيل قشتالة والأرغون في دولة إسبانية واحدة عام 1479م استولى "فرديناند وإيزابيلا" على زمام الأمور بيد من حديد تحمل السيف والإنجيل في آن واحد.[4]

[1] لوي كردياك، المرجع السابق، ص 28.

[2] جون بوولف، الجزائر وأوروبا 1500- 1830م، ترجمة أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د ط، 1986، ص 26.

[3] المرجع نفسه، ص ص 28، 29.

[4] أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 86.

فبعد الانتصار الذي حققاه على مسلمي الأندلس فَكَّرَا في توسيع ملكهما لخلق إمبراطورية مترامية الأطراف فوجها أنظارهما إلى حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي لاحتلال سواحله يحركهما في ذلك دافع التملك والتفوق والجشع الاستعماري، ففترة الثمانية قرون التي حكم فيها المسلمون الأندلس وكانت لازالت ماثلة في أذهان الإسبان بما تخللها من حوادث وهزائم من الفتح الإسلامي لإسبانيا عام 711م على يد "طارق بن زياد*"،ونجدة المرابطين والموحدين لإخوانهم في الأندلس ولجوء الأخيرين إلى بلاد المغرب الإسلامي بعد سقوط غرناطة مستنجدين بإخوانهم هناك، لذا رأوا ضرورة تتبع المسلمين إلى مكان فرارهم شمال إفريقيا مُدَّعين بأن الأساطيل الإسلامية كانت تغزو السواحل الأوروبية وتنهبها، وهذا خوفا من أن يعيد المسلمين المغاربة الكرة عليهم ويسترجعوا الأندلس من جديد.[1]

وهو تكتيك حربي الغرض منه إفشال خطة العدو وإشغاله بنفسه في عقر داره، أي حمل الحرب إلى أرض العدو، هذا في الوقت الذي دبَّ فيه الضعف والشقاق في صفوف المسلمين بشمال إفريقيا بسبب الحروب الداخلية والفتن والنزاع على السلطة.

وهكذا جاء ملوك الإسبان والبرتغال واحتلوا أم المدن الساحلية للمغرب الإسلامي ستغلين في ذلك الفراغ السياسي الذي حل بدول هذه الأقطار.[2]

3-الأسباب الاقتصادية:

نتج عن الحروب الصليبية التي دامت أكثر من قرن (1095- 1291م) ظهور مستودعات تجارية أسهمت في تطور الحركة التجارية التي امتدت إلى أقصى الشرق زيادة المعرفة الجغرافية، وبهذا ظهرت النزعة الاستعمارية التوسعية لدى دول أوربا خاصة الكبرى

* طارق بن زياد هو قائد عسكرأموي فتح الأندلس، وقاد أول الجيوش الإسلامية في شبه جزيرة إيبريا وانتصر في معركة وادي لكة، ولد عام 50هـ في خنشلة في الجزائر في قبيلة نقرة البربرية، وتولى حكم طنجة سنة 89هـ، ثم فتح الأندلس سنة 92هـ. ينظر تامر بدر، طارق بن زياد، www.islamstory.com، ص 21.

[1] يحي جلال، التاريخ الأوربي الحديث والمعاصر منذ الحرب العالمية الأولى الفترة المعاصرة، المكتب الجامعي، مصر، د ط، 1991، ص 11.

[2] المرجع نفسه، ص ص 11، 12.

منها مثل إسبانيا والبرتغال اللتين كانتا تمثلان القوى التقليدية العظمى آنذاك وهذا لفرض سلطانها المالي والتجاري على العالم[1]، ساعدهما في ذلك حركة الكشوفات الجغرافية التي أطلقاها إثر سقوط غرناطة سنة 1492م بعد أن كانت مشلولة بسبب الحرب حول شبه الجزيرة الإيبيرية وسيطرة العرب على تجارة التوابل آنذاك فكان من الطبيعي أن تكون إفريقيا هي المستهدف الأول نظرا لعامل القرب الجغرافي، يضاف إليه هجرة المسلمين الأندلسيين إلى سواحل المغرب الإسلامي وهي النقطة التي أفاضت الكأس، حيث وجدت إسبانيا في ملاحقتهم ما يبرر وجودها في هذه الناحية خاصة وأن شبه الجزيرة الإيبيرية بعد حركة الكشوفات الجغرافية أصبحت بحاجة ماسة إلى أسواق لتصدير الفائض من الإنتاج إلى ثغور ساحلية تستقبل أساطيلها المحملة.[2]

فوجهت هذه الحركة الاستعمارية ضد العرب المسلمين للقضاء على تجارتهم الواسعة فيما وراء البحار، خاصة تجارة التوابل في بلاد الهند، وتعززت هذه الهجمة الاستعمارية بانعقاد مؤتمر "توردي سيلاس* 1494م"، الذي أطلق أيادي الإسبان والبرتغاليين على أراضي المغرب الإسلامي، علاوة على ما تقدم ذكره فإننا إذا نظرنا للحالة أو الوضع الاقتصادي لإسبانيا في ذلك الوقت يعني في نهاية القرن الخامس عشر (15م) وبداية القرن السادس عشر (16م) نجد أنها كانت تعيش انهيارا اقتصاديا عم جميع البلاد، وهذا بسبب فقدانها لتلك الطاقات الحيوية النشيطة من مسلمي الأندلس واليهود الذين أبعدتهم فشعرت بفراغ مسها في جميع المجالات، حتى أصبحت حياتهم حياة كسل وخمول فانحطت الأخلاق، وبارت الأرض، واندثر العمران، وكسدت التجارة وأصاب إسبانيا انهيار اقتصادي،

[1] يحي جلال، المرجع السابق، ص 13.

[2] علي محمد الصلابي، دولة السلاجقة، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع القاهرة، ط1، 206، 429.

*عقدت عقب نشوب الصراع بين البرتغال وإسبانيا للوصول إلى الهند عن طريق الإتجاه نحو المغرب وتأمين الأراضي التي اكتشفتها واحتلتها كل منهما بما فيها المغرب الإسلامي فتوسط الباب "اسكندر السادس في الأمر من أجل اقتسام النفوذ في العالم، قضت المعاهدة أن تستولي البرتغال على كل المكتشف شرقي خط وهمي يرسم بطول المحيط الأطلسي 46 و37° غربا في حين يكون لإسبانيا كل ما يقع غربي هذا الخط. ينظر: عبد القادر فكاير، العلاقات الجزائرية البرتغالية خلال الفترة العثمانية، الدورية التاريخية، ع 18، ديسمبر 2012، ص 25.

فكان عليها أن تحتل السواحل المغربية لتدر خيرات المغرب الإسلامي على سواد شعبها خاصة وأن هذه المنطقة تحظى بموقع استراتيجي مكنها من الإرتباط تجاريا مع إفريقيا الوسطى، وأن احتلالها يعني القضاء على حركة القرصنة الإسلامية التي كانت تغزو السواحل الإيبيرية آنذاك.[1]

فجميع هذه الأسباب من دينية وسياسية واقتصادية دفعت إسبانيا إلى احتلال سواحل المغرب الأوسط هدفها في ذلك أن تضم شمال البحر الأبيض المتوسط إلى الساحل الجنوبي منه الذي يضم سردينيا وكورسيكا وصقلية وجزر البليار لتحيي بذلك سياسة بحرنا الرومانية.[2]

المبحث الثالث: السياسة الإسبانية في المغرب الأوسط

إن إسبانيا والبرتغال اتفقا على اقتسام المغرب العربي بينهما، على أن يكون المغرب الأقصى من نصيب البرتغال وأن تكون الجزائر وتونس وغيرهما من نصيب إسبانيا.[3]

إن إسبانيا ابتدأت توسعاتها إثر تحطيمها مملكة الأندلس واستلائها على غرناطة، حيث بنت إسبانيا سياستها على الضغط على ملوك المغرب إلى حين دفعتهم لقبول الحماية الإسبانية وكانت إسبانيا تعتمد في سياستها على تركيز نفوذها في المدن والموانئ مما شجع على التركيز السلطة فيها في أيدي القوات البحرية القادرة على مواجهة الأخطار المحيطة خاصة المراكز الهامة تونس، مدينة الجزائر والمغرب الأقصى وطرابلس.[4]

[1] علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ص 430.

[2] أسماء أبلالي، التحرشات الإسبانية على سواحل الجزائر خلال القرن 1هـ/ 16م، قراءة في الدوافع والنتائج، مجلة روافد للبحوث والدراست، ع2، غرداية، 2017، ص 41.

[3] فيشر هربرت، أصول التاريخ الأوربي الحديث، تر: زينب راشد وأحمد عبد الرحيم ومصطفى، مراجعة أحمد عزب، دار النهضة العربية، بيروت، دط، 1970، ص 70.

[4] عمر محمد عبد العزيز، الفوزي محمد علي، دراسات في تاريخ أوربا الحديث والعاصر (1815- 1950م)، المرجع السابق، ص 13.

وكان منطلق هذه العمليات هو من المرسى الكبير الذي يتمتع بموقع هام والملاحية التي ترسو بها السفن كأول مركز استعماري حقيقي على الساحل الإفريقي وقد بنيت سياسة الإسبان بالإضافة إلى التقتيل والتخريب على استئصال كل ما هو مسلم وإخلاء مدن بأكملها سواء بالأندلس أو المغرب الإسلامي والإضرار بالموانئ لضرب الحركة البحرية بالبحر المتوسط، ونقل الضغط نحو شمال إفريقيا كما أن الإسبان في استراتيجياتهم لم يحاولوا التوغل نحو الداخل واكتفوا بالإنتصار السياسي والحربي لأنهم كانوا يرون وجوب إخضاع المغرب العربي ولذلك عملوا على احتلال المدن الساحلية.[1]

وحصر المسلمين داخل البلاد وقد نجحوا في تنفيذ هذه السياسة بفعالية عالمية من خلال عمليات سريعة كما قاموا بزحف من المراكز الساحلية المحصنة إلى داخل البلاد وإخضاعها، وهذه السياسة لم تنجح فكلف "فرديناند وإيزابيلا" دوق مدينة سيدونيا باحتلال مدينة مليلة في سبتمبر 1496م والتي حولت إلى منطلق لبعثات الاستطلاع عن الوضع العام ومدى تقبل القبائل للتعامل مع المسيحيين.

وكان أول مرسى أخذه الإسبان هو المرسى الكبير سنة 155م حيث الكردينال "خمينيس*" الذي يعتبر الموجه والمفذ للمشاريع التوسعية الإسبانية على المدن والموانئ الجزائرية بمباركة العرش الأزاغوني، ووقع الإختيار على المرسى الكبير كنقطة إنزال تحت نصيحة "جيرو تيموفبانيلي"، وهو جاسوس إيطالي من البندقية جاء إلى وهران متسترا ومتنقلا في نواحيها فوضع خريطة لمدينة وهران والمرسى الكبير.[2]

وكانت مكافأته قيادة جزء من الأسطول الإسباني ليلا وتحديدا في كاب فالكون مكن المهاجمين من حصار الموقع وعزله عن داخل البلاد لمدة فاتت 5 يوما وسقطت في أكتوبر

[1] عمر محمد عبد العزيز، الفوزي محمد علي، المرجع السابق، ص 14.

[2] نجيب دكاني، الوجود الإسباني على السواحل الجزائرية ورد الفعل الجزائري خلال القرن السادس عشر، رسالة ماجيستير، تحت إشراف الدكتور ناصر الدين سعيدوني، الجزائر، 2002، ص 25.

رغم المقاومة البائسة لحماية المرسى الكبير من مقتل قائدها، وسلم الحصن بعد ذلك وبشروط مشرفة لتصل النجدات من تلمسان والمناطق المجاورة لها متأخرة وتمكن الإسبان من التحصين داخل أسوار المرسى.[1]

المبحث الرابع: بداية الحملات الإسبانية على المغرب الأوسط

1-احتلال المرسى الكبير:

عندما أتم "فرديناند" ملك إسبانيا تجهيز الحملة، وهي الحملة التي مول أسطولها الكاردينال الوزير "خمينيس" بأمواله الخاصة وبما قدمته له الكنيسة من مساعدات، توجه الأسطول للغزو، فغادر مدينة مالقة في أوت 1505م، تحت قيادة "دون رايموند دي قرطبة donroymond di hordoue" وكان الأسطول ينقل معه قوة من الجيش بخمسة آلاف رجل بقيادة "دون ديتفور فرنانيز don ditfourre fernondez"، ووصل هذا الأسطول إلى المرسى الكبير يوم 11 سبتمبر وأحكم الحصار على المدينة لمدة خمسين يوما[2]، وظلت الاشتباكات خلال هذه الفترة مستمرة.

عندما بدأت إسبانيا عملية الإنزال قام المسلمون مقاومة يائسة وعنيفة رغم اختلال توازن القوى بين الطرفين نتيجة ليأس الحامية بعد مقتل قائدها أثناء الليل تشاور سكان المدينة فيما بينهم في اجتماع عقدوه في دار المزوار كانت الأغلبية يميل إلى متابعة الجهاد في حين كانت الأقلية ترغب في الاستسلام وحجتها أنه من المحال على الحامية التي لا

[1] نجيب دكاني، المرجع السابق، ص ص 25، 26.

[2] Emmanuelli (René) : gènes et l'Espagne dans la guerre de course (1559- 1569). Ed/ société médiévales méditerranéennes, paris, 1964, pp 307- 309.

تزيد في الأصل عن خمس مائة رجل التغلب على قوة مشكلة من خمسة آلاف مقاتل إسباني، في المقابل فإن انتصار الإسبان يعني استباحة المدينة وأهلها.[1]

في النهاية انتصر المعتدلون وتقرر مفاوضة الإسبان على شروط التسليم التي وافق القائد الإسباني عليها بانسحاب المسلمين من المدينة في أجل أقصاه ثلاث ساعات من أجل إخلاء المدينة وبقية الحصون واشترط عليهم أن لا يأخذوا معهم أي شيء من الزاد والمؤن ولا من الحيوانات ولا حتى من الأسلحة، عندما تم انسحاب المسلمين في الفترة المحددة من التاسعة صباحا إلى الظهر اقتحم الإسبان المدينة ورفعوا فوقها أعلامهم ثم توجه .... القائد الأعلى إلى مسجد المدينة الأعظم وأمر بتحويله إلى كنيسة فورا وأطلق عليها اسم كنيسة القديس ميكائيل.

انصرف الإسبان على الفور لتحصين المدينة وعملت الحامية الإسبانية بالمرسى الكبير على فتح السوق التجاري إلى جانب المدينة بهدف تأمين متطلبات الحامية من جهة وإقامة علاقات مع السكان من جهة أخرى، وأغدقت الحامية بالذهب والفضة على المتعاونين معها من التجار، غير أن المسلمين اعتبروا أولئك المتعاونين خونة وعاملوهم معاملة الأعداء[2] وتسمى على رأس إدارتها بيدرو نفار وكوال عسكري، وبهذا الغزو بدأت إسبانيا تشعر أن أملها في احتلال ونشر المسيحية في المنطقة ومحو الإسلام بدأت يتحقق حيث كان حلولهم بالمرسى الكبير يوما مشهودا عندهم أدوا فيه الصلوات ورخص للشعب الإسباني إقامة المهرجانات والأفراح مدة أسبوع احتفالا بقرب انتشار الديانة المسيحية واستعظم الإسبان احتلالهم للمرسى الكبير وظنوا أنهم قادرون على احتلال باقي إفريقيا بالسهولة ذاتها

[1] Amoura (Amar), résume de l'histoire de l'Algérie, traduit par Maaradji (Ali), édition Raihana, Alger, 2002, p 11.

[2] Amoura, op- cit, p 11.

والدليل هو كتبه أحد قادتهم "دون قونزالف don gonzalev" في تقرير للكاردينال "خمينيس" عند حلوله المرسى الكبير ها نحن الآن فتحنا نصف إفريقيا[1].

ثم أخذت القيادة الإسبانية في الإعداد للمرحلة الثانية من التوسع حيث قام حامي المرسى الكبير "فرديناندیز" حملة بهدف الهجوم على مسرغين بإغارة مباغتة، وكانت هذه المدينة غير بعيدة عن المرسى الكبير ويصل بينهما طريق سهلي يمر من تحت حصون مدينة وهران ولهذا أقر اتباع الطرق الجبلية والأودية، وجند لقيادة الحملة أدلاء ومرتزقة استأجرهم بالمال من رجال قبيلة جيزة التي كانت تنتشر حول المرسى الكبير ووهران وغادرت هذه الحملة المرسى الكبير في يوم 6 جوان 1507 وبدأت تحركها ليلا، وقد ضمت هذه الحملة القوة الإسبانية بكاملها تقريبا، بحيث لم يترك في المرسى الكبر \اغلا العدد الضروري لحماية المدينة وأسوارها، كانت المسيرة شاقة حيث وصلت الحملة إلى هدفها مع الفجر[2]، وأحاطت بالقبيلة مستفيدة من عامل المباغتة قد دمرت مقاومتها بسرعة، واستولت على الغنائم كما استخدم الإسبان كل ما وجدوه من الخيول وعربات الجر لحملها ونظموا سيرهم، غير أن وصول نجدة من القبائل المجاورة والتي استفادت من الضباب الكثيف لتلحق بالمغيرين الذين اختل نظامهم هزيمة ساحقة وسقط من القوة الإسبانية ثلاثة آلاف قتيل فكانت هذه أول هزيمة للإسبان في المغرب الأوسط.[3]

2-احتلال وهران:

ظل الكاردينال الإسباني "خمينيس" يتابع في هذه الفترة تجهيز حملته الكبرى للقضاء على المسلمين في المغرب وما أن أكمل استعداداته حتى أبحر من مرسى قرطاجنة الإسبانية

[1] Contereras et dedieu : formation de l'inquisition espagnol 1470- 1820, Espagne, 1980, p p 37- 38.

[2] Contereras et dedieu, op- cit, p p 38- 39.

[3] عوض محمد مؤنس، تقديم البيشاوي سعيد عبد الله، الحروب الصليبية، دراسة تاريخية نقدية، دار الشروق، عمان، الأردن، 1999، ط1، ص 170.

في يوم 19 ماي 1509م بقوة من خمسة عشر ألف مقاتل ووصلت هذه الحملة إلى المرسى الكبير في اليوم التالي كمرحلة أولى ونزلت إلى البر دون أدنى عائق كان حاكم المرسى الكبير قد هيأ حربه بطريقة أخرى إذ اشترى ذمة بعض من القادة وهم القائد "عيسى العربي وابن قانص" وتلقوا أمر بفتح الأبواب بمجرد وصول الحملة وبداية الحصار، كما اتخذ كل الاستعدادات لمساعدة هذه الحملة لا من أجل النزول في المرسى فحسب، بل من أجل بلوغ هدفها في وهران كما تمكن من شراء ذمة القائد العام لمدينة وهران اليهودي "سطورا".

كانت وهران عندئذ تحت سلطة الملك الزياني الإسمية إلا أن مجلسها كان منظما على شكل جمهورية شبه مستقلة وابتعدت الحامية في وهران للقاء القوات الإسبانية واصطدموا بها خارج المدينة غير أن تفوق الإسبانيين بالأسلحة النارية وأرغمهم على العودة إلى المدينة للاستفادة من تحصيناتها وبينما كان المسلمون على الأسوار، كانت القوات الإسبانية تتجمع أمام أحد الأبواب الذي ما لبث الخونة أن فتحوه فتدفقت القوات الإسبانية عبره، فيما كانت البقية منهم تتدفق من كل أبواب المدينة على الرغم من ذلك استمرت المقاومة لمدة خمسة أيام حول المسجد الأعظم في حي الفقيه، ولم تتوقف المقاومة حتى قضي على كل رجال المدينة، فيما لم يمت من الإسبان أكثر من ثلاثين شخص في حين استشهد من المسلمين عددا كبيرا واستسلم الباقون بناء على الوعد بالحماية على الأموال والأرواح لكل الإسبان لم يحترموا هذه الوعود، وقاموا بقتل حوالي ستة ألاف مسلم وأسروا ثمانية آلاف وتمت مصادرة الأرزاق والأموال ولم تنج حتى الأثريات من المخطوطات العربية[1] والمزهريات وبعض التحف الأثرية، إذ قام "خمينيس" باختلاسها وعند رجوعه في كنيسة طليطلة كما قام بتحويل الجامعين الرئيسيين إلى كنيستين وأنشأ ديرا لتنصير المسلمين ونصب مفتشا لمتابعة اليهود والزنادجة[2]، ثم قام بتحويل مساجد وهران إلى كنائس كما جعل

[1] وولف جون، الجزائر وأوروبا، ترجمة وتعليق سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق، م و ك، الجزائر، 1986، ص 129.

[2] المرجع نفسه، ص 129.

المسجد الأعظم كاتدرائية وظلت تحت الحكم الإسباني إلى غاية 1792م وقد نتج عن انتصار الإسبانيين في وهران مجموعة من التحولات أبرزها:

- اعتراف أبو حمو الثالث بتبعيته وخضوعه للحكم الإسباني وتقديم جزية سنوية مع التعهد بعدم القيام بفعل يضر بالصداقة الإسبانية.
- خضوع قبيلة بني عامر للحكم الإسباني، وأصبحوا له أعوانا كجند وعيون[1]، بقيت وهران مستقلة مدة أربع سنوات حيث كان الناس ينظمون جلساتهم بالاستعانة ببعض الجزائريين من جماعتهم اليهودي "أسطور"[2] وتجار مسلمين كانوا مكلفين بمسك الأعشار إلى غاية ربطها بشكل مباشر بالتاج الإسباني.[3]

3-احتلال بجاية:

بعد احتلال وهران وصلت الأوامر لقائد الأسطول "بيدرو نفار" بالتوجه إلى بجاية لإخضاعها مع حصوله على لقب حاكم المغازي "les conquêtes" الإسبانية في إفريقيا تاركا تسيير شؤون وهران لـ "دييغو دي كوردوبا diego de cordoba"، فخرج على رأس أسطول متكون من 14 سفينة على متنها ثمانية آلاف (8000) جندي وأرسل له "فيانيلي" كمساعدة له ومعه مجموعة من السفن، فبجاية آنذاك كانت تمثل إحدى أهم المدن الجزائرية بنشاطها العلمي والتجاري والعمراني والبحري نظرا إشرافها على ميناء هام جدا، ساهم في كل ذلك وصول أعداد كبيرة من الأندلسيين الفارين من الإضطهاد الديني في إسبانيا.[4]

فجأة أطل الأسطول على ميناء المدينة وتم إنزال الجنود ليلا ليبدأ الهجوم مع طلوع الفجر، وقد تمكن الإسبان بفضل مدفعية السفن المصوبة نحو تحصينات المدينة من فتح

[1] أحمد توفيق المدني، حرب الثلاث مئة سنة، المرجع السابق، ص 112.

[2] كان هذا اليهودي "أسطورا" من مهاجري الأندلس ومن الذين أنقذوا من قبل مسلمي وهران من المحارق الإسبانية.

[3] أحمد توفيق، المرجع السابق، ص 112، 1116.

[4] محمد دراج، الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس (1512- 1543م)، تر: ناصر الدين سعيدوني، شركة الأصالة، الجزائر، 2014، ط1، ص 111.

فجوة في السور المحيط بها فمكنهم من التسلل عبره والسيطرة على المدينة، رغم المقاومة الشديدة لسكان المدينة والمدافعين عنها وعلى رأسهم حاكم قسنطينة "الحفصي عبد العزيز" لكن المعركة حسمت لصالح الإسبان وأبيحت المدينة للجنود فخربوها وقتلوا أكثر من أربعة آلاف وخمس مائة (4500) من سكانها.[1]

ويفسر ضعف الدفاع بقوة المدفعية الإسبانية التي دفعت بآلاف المقاومين إلى مرتفعات بما قوراية المشرفة على المدينة لتنظيم أنفسهم استعدادا لمواصلة المقاومة وكانت أولى أعمال الإسبان بناء قلعة قرب البحر، وإصلاح حصن قديم يطل على البحر قرب مخازن السلاح[2]، كما قاموا بإطلاق سراح "عبد الله" وتنصيبه على رأس المدينة مع إعلانه الولاء والطاعة لهم، والهدف من تلك المناورة إضعاف المقاومة بتقسيمها بيم موانئ لهذا الأخير والمساندين لعمه "عبد العزيز" سقوط وهران ثم بجاية في ظرف قصير يضاف لما عنف الهجومات الإسبانية والمعاملة القاسية للأهالي أحدثت موجة من الرعب والخوف على طول الساحل الجزائري وأسرع العديد من حكام المدن ومشايخها نحو "فرديناند" معلنين الطاعة والخضوع لسلطانه وعلى رأسهم وفد مدينة الجزائر الذين وقعوا معاهدة الاستسلام بدل الوقوع تحت الحصار متذرعين بانعدام نظام دفاعي بما فيها المدفعية.

ففي 31 جانفي 1510م توجه سليم التومي بصفته شيخ مجس الأعيان إلى بجاية معلنا ولاءه للقائد الإسباني "بيدرو نفار" وقد طلب منه هذا الأخير دفع ضريبة باهضة وإطلاق سراح الأسرى المسيحيين، وقبول بناء حصن على تلال الجزر المقابلة لمدينة الجزائر، كما اشترط عليه الذهاب شخصيا رفقة "مولاي عبد الله" حاكم مدينة تونس[3] إلى إسبانيا متعهدين أمام "فرديناند" بتنفيذ تلك الشروط وقد تكون مطابقة للمعاهدة المفروضة

[1] محمد دراج، المرجع السابق، ص 112.

[2] Ferand charles, conquete de bouhie par les espahnoles d'apreés un manuscrit arab, RAN° 12, 1868, p 248.

[3] عبد القادر فكاير،الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية وآثاره 910- 1206هـ/ 1505- 1792م، دار هومة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012، دط، ص 510.

على مدينة مستغانم والتي تنص على أن السكان العرب واليهود مجبرون على خدمة ملك القلعة بوفاء وإخلاص، ويدفعون الضرائب والغرامات المفروضة عليهم وذلك في أول جوان من كل سنة، وتحول تلك الأموال إلى أمين خزينة وهران دون تزوير، غش أو نقصان.[1]

كما نصت أيضا على تحرير الأسرى المسيحيين في كل من مستغانم ومزغران كما لا يمتنع السكان أو يرفضوا بيع الجنود الإسبان ما يحتاجونه من مواد غذائية وبأسعار محددة، كما يجب عليهم تزويد مدينة وهران و المرسى الكبير بالمواد الغذائية إذا طلب منهم ذلك، وأن لا يسمحوا بشحن أو تفريغ أي باخرة في الميناء دون الحصول على إذن من الملك أو الملكة، وكان استسلام مستغانم في 26 أفريل 1511م، و الملاحظ انعدام كلّي لسلطة جزائرية، وأن تلك الشروط فرضت على السكان وكان رد فعلهم الوحيد ضد الهجمة الاسبانية.[2]

أما حصن البينيون penon de angel فقد بني على أكبر الجزر المقابلة لخليج الجزائر والمعروفة بجزيرة سطوفلة stofla وهي تبعد 300 متر عن المدينة، وقد بني على أنقاض منارة بناها الاندلسيين نهاية القرن 15م لإرشاد السفن، ومهمة الحصن جعل المدينة تحت رحمة الإسبان وإجبار سكانها على تنفيذ بنود المعاهدة وشروطها ومنع أي نشاط بحري للأسطول الجزائري مما أجبر السفن على التوجه إلى تامنفوست أو سيدي فرج، كما أقام الإسبان داخل القلعة "داخل القلعة" فرقة عسكرية من 200 جندي مدعمة بالمدفعية، وفعلا تحول ذلك الحصن إلى شوكة مغروسة في قلب المدينة وسكانها.[3]

كان "لسليم التومي" معارضين لمشروعه في إعلان الطاعة و الخضوع للإسبان وزادت تصرفات هؤلاء تذمر السكان، وعاشت الجزائر بسببها اضطرابات منذ 1510م

[1] Amoura, op- cit, p 24.

[2] عوض محمد مؤنس، المرجع السابق، ص 173.

[3] محمد دراج، المرجع السابق، ص 116.

لاختلاف الآراء حول مبلغ الجزية التي تدفع للإسبان، ووجود الحامية قرب المدينة شلت كل حركة تجارية خارجية وخنقت المدينة، وشجع "سليم التومي" على ضرورة احترام المعاهدة لأنها توفر الأمن والحماية للمدينة، لكن أغلبية السكان كانت آراءهم مختلفة.[1]

4-خضوع مستغانم ، شرشال و دلس للإسبان:

سبقت الإشارة للمعاهدة التي فرضها الإسبان على مستغانم وأرسلت مدينة شرشال ودلس وفود إلى إسبانيا طالبين التبعية والخضوع للملوك الكاثوليك رغم قساوة الشروط المفروضة والمتمثلة في تقديم فدية (جزية سنوية).[2]

- إطلاق سراح الأسرى المسيحيين.
- التخلي على القلاع والحصون التي كانت بأيدي بالإسبان.
- ضرورة تموين المحميات بالمواد الغذائية والماء حسب أسعار محددة مسبقا.
- غلق الموانئ في وجه السفن المعادية للإسبان.[3]

5-احتلال عنابة:

تنفيذا لتوجيهات "فرديناند" توجه الأسطول الإسباني بقيادة "بيدرو فرديناند" نحو الشرق لإخضاع إمارة تونس الحفصية، بعد أن ترك محمية في بجاية واتمم تحصينات هذه الأخيرة، وفي طريقة ‘ليها توجه إلى مدينة عنابة واحتلها دون مقاومة تذكر.[4]

وكان ذلك سنة 1510م حيث ترك فرقة عسكرية بها وانطلق نحو تونس وبسبب تحصيناتها الجيدة وصعوبة الاستيلاء عليها لقلة تعداد حملته سواء من حيث السفن أو الجنود، انتقل إلى طرابلس الضحية السهلة فاستولى عليها رغم المقاومة الشديدة لسكانها،

[1] محمد دراج، المرجع السابق، ص 116.

[2] يحي بو عزيز، تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، وزارة الثقافة الجزائر، 2007، دط، ص 97.

[3] المرجع نفسه، ص 97.

[4] عبد الله شريط، محمد الميلي، الجزائر في مرآة التاريخ، مطبعة البحث، قسنطينة، 1965، ط1، ص 117.

وارتكب فيها أبشع الجرائم حيث قتل أكثر من 6000 مسلم بين مدافعين و مدنيين وقد ترك على رأسها "دييغو دي فيرا diégo de véra" سنة من بعد وقع التنازل عن طرابلس لنائب الملك في صقلية، حيث أرسل لها حاكما وهو يدعي "قيلام دي مونكاد guillem de moncade"

وهكذا أسقطت أو خضعت المدن التابعة لتلمسان أو المستقلة عنها، أما هذه الأخيرة فقد أرسلت وفدا إلى حاكم وهران الإسباني تعلن دخولها تحت طاعته وتتكفل فيه بتموين المدينة، على ذلك الولاء والتبعية لم تكن سمة جميع الزيانيين فالمعارضة كانت شديدة لذلك التوجه.

وطيلة النصف الأول من القرن السادس عشر (16 م) سوف تتأرجح هذه الإمارة بالخضوع للإسبان مرة ومواجهتهم والإنفصال عنهم مرات أخرى.[1]

المبحث الخامس: نتائج الاحتلال الإسباني لسواحل الجزائر

كان للاحتلال الإسباني لسواحل شمال إفريقيا عامة وسواحل الجزائر خاصة آثار خطيرة على مستقبل هذه المنطقة الحيوية من العالم الإسلامي، ويمكن رصد هذه الآثار من خلال نوعين أساسيين من النتائج المترتبة عن الاحتلال.[2]

أ- النتائج السياسية:

1) إخضاع الموانئ والمدن الجزائرية المحتلة لإشراف الإدارة الإسبانية المباشرة، الأمر الذي أفقد الأسر الحاكمة والمجالس المحلية التي كانت تشرف على إدارة المدن الساحلية المحتلة سلطتها السياسية، فأصبحت المدن الجزائرية المحتلة دون قيادة سياسية تتولى قيادة الشعب لتحرير موانئه، أو التفاوض بِاسمه أمام السلطات الإسبانية. الأمر الذي نجم عنه بروز قيادة أخرى تولت قيادة الشعب مؤقتا إلى حين ظهور قيادة أخرى تولت

[1] عبد الله شريط، محمد الميلي، المرجع السابق، ص 117، 118.

[2] جيلالي عبد الرحمان، تاريخ الجزائر العام، الرجع السابق، ص 196.

قيادة الشعب مؤقتا إلى حين ظهور قيادة كفؤة تسند إليها مهمة إنقاذ البلاد وإدارتها بعد تحريرها.

2) تهافت القوى الزيانية والحفصية في كل من تلمسان وبجاية على التقرب من الإسبان، معلنة تبعيتها وخضوعها لهم بعد فشلها وعجزها عن مقاومة الاحتلال، فقد سارع السلطان الزياني بعد سقوط وهران إلى السفر إلى إسبانيا مصحوبا بهدايا ثمينة معلنا خضوعه للإسبان.[1]

أما الأميران الحفصيان "عبد الرحمان وعبد الله" اللذان كانا يتنازعان على عرش بجاية فقد وقع كل منها على انفراد معاهدة خضوع وتبعية للإسبان، ولم يكتف الأمير "عبد الرحمان" الحفصي ملك بجاية بذلك بل اعترف لهم بتملكهم لمدينة بجاية، وصخرة الجزائر التي أسسوا عليها قلعة البنيون penon d'alger وكل المراسي التابعة لمملكة بجاية.

3) وعلى إثر سقوط بجاية ساد القسم الشرقي من الجزائر موجة رعب كبيرة خصوصا في المملكة الحفصية بتونس، فبادر السلطان الحفصي "أبو عبد الله" باسترضاء الملك الإسباني والتقرب إليه، بل أعلن التبعية له كما فعل ملك تلمسان بعد سقوط وهران، وتعهد له بدفع جزية سنوية، مع فارسين من جياد الخيل وأربعة من طير الباز كدليل على التبعية والخضوع وأن يطلق سراح جميع الأسرى المسيحين دون قيد أو شرط، وأن يزود بجاية بالمؤن التي تحتاج إليها مجانا[2]، كما أدى سقوط بجاية أيضا إلى خضوع مدينة الجزائر للإسبان بعد أن صارت مطوقة من الشرق والغرب (بجاية ووهران).

4) لم يقتصر الخضوع للإسبان على السلطات الرسمية من الملوك والأمراء بل امتد ذلك إلى بعض القبائل العربية المحيطة بوهران التي سارعت إلى إعلان خضوعها لهم خوفا من بطشهم، ورغبة في الانتفاع بالامتيازات التي كانوا يحلمون بها، فقد سارعت قبائل بن عامر وغيرها من الأعراب الواقعين حوالي وهران إلى الإرتماء في أحضان الإسبان،

[1] جيلالي عبد الرحمان، المرجع السابق، ص 196.

[2] المرجع نفسه، ص 197.

وصاروا لهم أعوانا وعيونا على إخوانهم فلعب هؤلاء العملاء دورا خطيرا أعاق إلى حد كبير فيما بعد جهود التوحيد التي قام بها الإخوة بربروس تمهيدا لطرد الإسبان من وهران.

5) انعكس الاحتلال الإسباني لسواحل الجزائر بشكل سلبي على مسلمي الاندلس إذ لم تعد الموانئ الجزائرية قادرة على إرسال الإمدادات إليهم والتحفيف عنهم مما يلاقونه من اضطهاد وظلم نظرا لكون الإسبان كانوا قد فرضوا على الأمراء وأعيان الموانئ الجزائرية التعهد بعدم السماح لأي سفينة بالإنطلاق للإغارة على السفن المسيحية واعتبرتهم مسؤولين عن أي إخلال بذلك. [1]

6) كما أدى الاحتلال الإسباني إلى ظهور المقاومة الشعبية وقيادة الزعماء المحليين، كشيوخ الطرق الصوفية وعلماء الدين، وبعض الأمراء المحليين وتحريضهم للأهالي وتنظيمهم للثورة على الإسبان، وذلك بعد عجز ملوك الدولتين الزيانية والحفصية عن التصدي للإسبان.

7) بالرغم من فعالية المقاومة الشعبية التي تمكنت من حصر الاحتلال في المدن الساحلية دون التوغل في داخل البلاد إلا أنها لم تتمكن من تحريرها، الأمر الذي جعل الزعماء المحليين للمدن الجزائرية يرون ضرورة الاستعانة بالبحارين التركيين "عروج وخير الدين بربروس" طالبين منهما التدخل لتحرير مدنهم ورفع الظلم عنهم، وذلك بعد ما بلغتهم انتصاراتهما على الإسبان في عرض البحر المتوسط، وتمكنهما من تحرير قلعة جيجل، وفرض حصار شديد على بجاية. [2]

8) وأخيرا كان من النتائج المهمة التي غيرت تاريخ المنطقة والتي نتجت هي بدورها عن الاحتلال الإسباني لسواحل الجزائر، تدخل الأتراك العثمانيين لحماية هذه السواحل وطرد الإسبان منها، أداءً لواجب الدفاع عن البلاد الإسلامية من جهة واستجابة لاستغاثات

[1] شارل أندريه جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، المرجع السابق، ص 324.

[2] عزيز مسامح إلتر، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، المرجع السابق، ص 50.

أهالي المدن الجزائرية الذين ما فتئوا يرسلون إليهم الدعوات المتتالية طالبين منهم الإسراع لإنقاذ الجزائر قبل أن يؤول أمرها إلى ما آل إليه أمر الأندلس فكان من أثر ذلك أن جعل هؤلاء الأتراك من الموانئ التي تم تحريرها قواعد ينطلقون منها لشن غارتهم على السفن والموانئ المسيحية والإسبانية في غرب البحر المتوسط قبل أن تتطور الأحداث السياسية والعسكرية التي عرفتها الجزائر في تلك المرحلة من تاريخها. فيتم إلحاقها بالدولة العثمانية لتصبح بعد ذلك أهم إيالة عثمانية في غرب البحر المتوسط أسندت إليها مهمة التصدي للإسبان في شمال إفريقيا.[1]

ب- النتائج الاقتصادية

ترتب عن احتلال الإسباني نتائج وخيمة على اقتصاد الجزائر، أدت بدورها إلى زيادة تدهور أحوال الدويلات التي كانت تشرف على إدارة الموانئ الجزائرية، كما ضاعفت من الضيق المادي للأهالي الذين كانوا يعتمدون على هذه الموانئ في تجارتهم الخارجية مع أوروبا على وجه الخصوص، ومن أهم هذه النتائج:

- بعد أن كانت الموانئ الجزائرية تلعب دورا كبيرا في إنعاش الاقتصاد الجزائري نتيجة لقيامها بدور الوسيط التجاري بين إفريقيا وأوروبا، أصيبت بعد سقوطها في يد الإسبان بالشلل التام، نظرا لرفض التجار الجزائريين التعاون مع الإسبان كنوع من المقاومة السلبية وبالرغم من تجاوب القلة القليلة من هؤلاء التجار مع الإغراءات التي كان يقدمها الإسبان للتجار الجزائريين إلا أن تأثير هؤلاء التجار العملاء على سير الأوضاع الاقتصادية في الجزائر بقي محدودا للغاية، وذلك بسب العزلة التي فرضها عليهم السكان الذين كانوا ينظرون إليهم على أنهم خونة ومتعاونون مع الأجنبي المحتل.
- ومن جهة أخرى فإن التجار الأجانب لم يعودوا يقصدون الموانئ الجزائرية، خصوصا الجنوبيين والبنادقة بسبب خضوعها للإسبان، فطلب منهم السلطان الزياني القدوم إلى

[1] عزيز مسامح إلتر، المرجع السابق، ص 51.

ميناء هنين إلا أن هذا الميناء سرعان ما احتله الإسبان ليشهد نفس المصير الذي عرفته بقية الموانئ الجزائرية الأخرى، أخذ الإسبان فور احتلالهم للمدن الجزائرية في إرهاق الأهالي والتضييق عليهم بفرض الضرائب والغرامات الباهضة، فقد فرضوا على سبيل المثال على أهالي مدينة بجاية أن يؤدوا إليهم سنويا 3600 فتيقا من القمح و100 فتيقا من الشعير، و50 فتيقا من الفول و100 رأسا من الغنم و50 رأسا من البقر و1000 حملا من الحطب، فكان من أثر هذه الإتاوات المالية وما شابهها أن ضاق الناس بها ذرعا، واضطر الكثير منهم إلى ترك التجارة عبر الموانئ المحتلة فرارا من مضايقات الإسبان، الأمر الذي ساهم بدوره في انهيار تجارة تلك الموانئ.[1]

- **ردود الفعل:**

إن عدم وجود سلطة مركزية قوية قادرة على تجنيد الشعب للدفاع عن البلاد، وانعدام التماسك بين أفراد المجتمع في تلك الحقبة من تاريخ الجزائر الحديث، وغياب مفهوم الدولة الذي من شأنه أن يجمع الشعب تحت راية سياسية واحدة، وشيوع الفوضى والاضطراب في سائر أنحاء البلاد، كل هذه العوامل وغيرها حالت دون تمكن السلطة المحلية من التصدي للعدوان الإسباني[2] ولذلك فإنه لم يمض إلا وقت قصير على سقوط المدن والموانئ الكبرى، حتى سارعت تلك السلطات إلى عقد معاهدات تبعية وخضوع للإسبان مع تكفلها بدفع الإتاوات المالية اللازمة مقابل ضمان سلامتها[3] إلا أن الإسبان عندما أرادوا التوغل في داخل البلاد تصدى لهم الأهالي الذين سلموا قيادتهم إلى الزعماء المحليين، من علماء الدين وشيوخ الطرق الصوفية وأمراء محليين وشيوخ أسر ذات شرف ومكانة دينية أو عشائرية أمثال: الأمير أبي بكر أمير قسنطينة، وآل المقراني الذين اتخذوا من قلعة بني عباس

[1] حسن تؤنس، تاريخ المغرب وحضارته قبل الفتح الإسلامي إلى الغزو الأوربي، المرجع السابق، ص 137.

[2] الزبيري محمد، مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث.

[3] أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ايتسام الثغر الوهراني، تحقيق المهدي البو العبدلي، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية بالجزائر، مطبعة دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1973، ص ص 19، 20.

البربرية ثم مجانة في منطقة القبائل الصغرى قاعدة لهم والشيخ ابن القاضي أمير القبائل البربرية في منطقة القبائل الكبرى، الذي جعل من جبل كوكو مقرا لإمارته وغيرهم من الزعماء المحليين الذين وجدوا أنفسهم على رأس المقاومة الشعبية ضد الاحتلال، فلم يمض وقت طويل على تولي هؤلاء الزعماء قيادة المقاومة حتى حظوا بمحبة الأهالي وثقتهم.[1]

ولا نجانب الحقيقة التاريخية إذ قلنا بأن العلماء وشيوخ الطرق الصوفية كانوا هم القيادة الرئيسية التي تصدت للاستعمار الإسباني بعد تبين عجز القوى الرسمية عن مواجهته، ورضاها بإعلان تبعيتها له مقابل الاحتفاظ بعروشها المتهالكة، ذلك لأنه منذ سقوط غرناطة أدرك هؤلاء العلماء أن الإسبان لن يكتفوا بما أحرزوه في الأندلس، بل سيمتد عدوانهم إلى ممالك الشمال الإفريقي في كل من الجزائر والمغرب وتونس وليبيا لأن هذه الممالك أصبحت بحكم موقعها الجغرافي، ولجوء المهاجرين الأندلسيين إليها خط دفاع عن الوجود الإسلامي في غرب البحر المتوسط سواء إسبانيا أو شمال إفريقيا، ومن هذا المنطق راح هؤلاء العلماء يقومون بتحريض الشعب على أخذ حيطته والاستعداد لرد العدو، وكان من أشهر هؤلاء العلماء الذين لعبوا دورا كبيرا في ذلك العالم الأديب "محمد التواني"، الذي خاطب سكان وهران بقصيدة طويلة جاء فيها:

يا أهل وهران انظروا نظر ... شفقة لبلدتكم من قبل أن تتردين

وقبل مجيئ المنشآت ببحرها ... وأي قلوب عندها مستقرين

ولا تكلوها غيركم ولئن يكن ... فما غائب مثل المقيم ببلدة[2]

وهذا وقد عبَّر الأهالي عن رفضهم للاحتلال الإسباني بتصديهم له عندما حاولت قواته النفاذ إلى المناطق الداخلية بعد سقوط المرسى الكبير ووهران، ففي بلدة مسرغين التي

[1] عزيز مسامح إلتر، المرجع السابق، ص 50.

[2] أحمد بن عبد الرحمان الشواني الراشدي، القول الأوسط في إخبار بعض ما حل بالمغرب الأوسط، تحقيق ناصر الدين سعيدوني، بيروت، 1991، ص

تبعد عن وهران بـ 25 كلم، تلقى الإسبان هزيمة فادحة أجبرتهم على الفرار إلى المرسى والإحتماء بأسوار قلعته مخلِّفين وراءهم أكثر من 3000 قتيلا ومئات الأسرى.[1]

وفي الشرق الجزائري لم تعترف القبائل البربرية خصوصا قبائل زواوة بالاحتلال الإسباني لمدينة بجاية وما حولها، ولم ترض بالأمر الواقع الذي فرضته المعاهدة المهينة التي عقدها أمير مدينة بجاية الملك عبد الرحمن مع الاحتلال الإسباني، بل سارعوا إلى مبايعة الأمير أبي بكر الذي كان يحكم قسنطينة باسم الحفصين والِتف حوله الثوار من أهالي التل وسكان الهضاب العليا في الشرق الجزائري، حيث اخذوا يناوشون القوات الإسبانية في حرب استنزاف مرهقة كما انتشرت الرباطات الصوفية في سواحل الجزائر لمقاومة الاحتلال التي كان رباط تنس ورباط تلمسان أشهرها، وقد عقدت هذه الرباطات مؤتمرا كبيرا اشتركت فيه قبائل أنقاد وبنو سنسن وترازة ومدغرة و بعض أعيان تلمسان للتنسيق والتعاون بين هذه الرباطات[2] إلا أنه في الوقت الذي رفض فيه معظم الأهالي الوجود الإسباني وراحوا يعدون العدة للتصدي له في كافة المناطق التي نزل بها، اختارت بعض القبائل العربية التي استوطنت في المناطق المحيطة بوهران كبني عامر وعكرمة وسويد إعلان تبعيتها وخضوعها للإسبان ،عندما لمست من نفسها عدم القدرة على مواجهتهم.[3]

بكل أسف لم تكتف هذه القبائل بإعلان تبعيتها للإسبان كتعبير عن الخضوع الظاهري الناجم عن الاضطرار والعجز عن المقاومة، بل صارت هذه القبائل عناصر أساسية يعتمد عليها المحتل في الحصول على المعلومات المتعلقة لتحركات المناوئين له، كما صار بعض أبنائها أدلة للعدة يرشدون قواته في الليل والنهار إلى مواطن الضعف في

[1] الجيلالي عبد الرحمان، تاريخ الجزائر العام، ج2، ط2، دار الثقافة، بيروت، 1983، ص 204.

[2] أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص ص 139، 141.

[3] عبد الفاتح مقلد الغنيمي، موسوعة تاريخ المغرب العربي، القاهرة، 1994، ص ص 117، 118.

معسكرات القبائل الأخرى، كما اتخذ الإسبان منهم جواسيس وأعوان ومستشارين حتى بلغ ضررهم مبلغا عظيما.[1]

لقد فعلت تلك القبائل ذلك إما رغبة في ما يمنها أن تجنيه من مكاسب مادية مقابل ما تقدمه للمحتلين من خدمات، أو خوفا مما يمكن أن يلحقها من أذى هي أعلنت التمرد والعصيان إلا أن الباحث المدقق في الدور الذي لعبته تلك القبائل يلاحظ أنه لم يكن عنصر الإكراه وحده هو الذي ألجأها إلى التعاون مع الإسبان، بل إن النظرة الضيقة للمصالح القبلية المادية والسياسية الآنية هي التي حدث بها إلى التضحية بالمصلحة الإسلامية والوطنية العامة والتنازل عنها لصالح المحتل، لقد كانت المغانم المادية والرغبة في السلامة من سطوة المحتل وهوس الانتقام من القبائل المذكورة إلى أن تقوم بدور العميل الخائن لوطنه وأمته، فكان من نتيجة ذلك أن فقدت هذه القبائل العميلة كل اعتبار لها بين الجزائريين عامة، وأهالي المدن المجاورة في مستغانم ووهران ومعسكر بصفة خاصة.

وبالرغم من تمكن الإسبان من احتلال الموانئ والمدن الساحلية نتيجة لتفوقهم العسكري، وضعف الجبهة الجزائرية المحلية المسؤولة عن أمن تلك المناطق غير قادر على التوغل في المناطق الداخلية بسبب اشتداد المقاومة الشعبية التي اِلتفت حول القيادات الدينية من العلماء وشيوخ الطرق كما سبقت الإشارة إلى ذلك.[2]

ويعترف المؤرخون الغربيون بأن القوات الإسبانية ظلت حبيسة في القلاع والحصون التي تمكنت من احتلالها، وشُدد الحصار عليها بمجيء الأتراك العثمانيين إلى الجزائر، حتى بلغ الضيق بالجنود الإسبان أنهم كانوا يتمنون الدخول في الإسلام للنجاة بأنفسهم مما

[1] الأغابن عودة المزاري، طلع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تحقيق يحي بو عزيز، بيروت، 1988، ص 211.

[2] محمد دراج، الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس 1512- 1543م، المرجع السابق، ص 140.

يكابدونه من ضيق، حسب ما كشفه بحث رسمي أجرته السلطات الإسبانية عن حالة حامياتها في الجزائر سنة 1540م[1].

لقد عاش الإسبان في القلاع التي قاموا باحتلالها أو إنشائها حياة تعيسة جعلتهم لا يتجرؤون فيها عن الابتعاد عنها إلا إذا صاروا جماعات، فالقبائل العربية والبربرية كانت تشن الغارات المتوالية على القوات الإسبانية في شكل حرب عصابات أنهكت القوات الإسبانية، وكانت الحكومة الإسبانية تجمع جنودها للحرب على الجزائر بالقوة وتسوقهم مكبلين بالأغلال إلى السفن لتحشدهم في هذه القلاع، وكان غذاؤهم شحيحا لأن الدولة كانت تهمل أمر التموين، وكذلك الرواتب كانت لا تذكر بالإضافة إلى تأخرهم في أدائها وكثيرا ما كانت تعجز عن دفعها فلا يتسلمها الجنود[2].

وبالرغم من اعتراف المؤرخين الغربيين بشدة المقاومة التي لقيها الإسبان إلا أننا نجد المؤرخ الفرنسي "شارل أندريه جوليان" حاول أن يجد أسبابا أخرى يبرر بها انحصار الوجود الإسباني في المناطق الساحلية، رغم إقراره بشدة المقامة الشعبية ولم يتردد في الإدعاء بأن إفريقيا كانت تحتل المرتبة الثانية في قائمة اهتمامات السياسة الخارجية الاسبانية التي كانت تعطي الأولوية للحرب في إيطاليا، مضيفا بأن الأحوال المالية التي كانت تمر بها إسبانيا لم تعد تسمح لها بخوض حروب أخرى في شمال إفريقيا.[3]

والحقيقة أن هذا التبرير لا معنى له في ميزان البحث التاريخي إذ لا يفهم منه سوى محاولة التقليل من شأن المقاومة الشعبية التي فرضت على المحتل للإختيار بين الموت في ساحة الحرب أو البقاء سجينا في القلاع التي تحصن بها، وإلا فكيف يمكن تفسير احتلال جميع الموانئ والمدن الرئيسية الواقعة على طول الساحل الجزائري الممتد على مسافة

[1] محمد دراج، المرجع السابق، ص145.

[2] حسين مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته من قبل الفتح الإسلامي إلى الغزو الأوربي، مجلد، المرجع السابق، ص ص 157، 159.

[3] محمد دراج، المرجع السابق، ص 146.

1200كلم، ثم يقال بأن احتلال هذه السواحل كان يأتي في المرتبة الثانية في قائمة الاهتمامات الخارجية الإسبانية.

كيف لنا أن نستصيغ هذا التفسير بعد أن رأينا البابا يصدر قرارا يعلن فيه الحروب الصليبية على الممالك الإسلامية في شمال إفريقيا سنة 1518م ويأمر ملوك أوربا بعقد هدنة لمدة خمس سنوات لكي تتمكن فيها إسبانيا لاحتلال ما تبقى من مدن وسواحلها[1]، ولم تكتف الكنيسة بذلك بل جندت كل إمكانيات العالم المسيحي لغزو الجزائر بقيادة إسبانيا وأصدرت فتوى دينية تضمنت الوعد بالغفران بكل من يساهم في دعم حملات غزو الجزائر بنفسه، وفرضت ضريبة صليبية على كل مسيحي للمساهمة في غزو الجزائر، بل إن القساوسة والرهبان باعوا أموال الكنيسة لتزويد الجيوش الغازية، كيف يمكن تجاهل كل هذه الحقائق ثم يقال بعد ذلك بأن هذه البلاد كانت تحتل المرتبة الثانية في السياسة الخارجية الإسبانية، وإنما أقل أهمية من حروب إسبانيا في أوروبا ضد منافستها فرنسا مخالفيها من البروتستانت في ألمانيا.[2]

[1] الراشدي، الثغر الجماني، المرجع السابق، ص 11.

[2] أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص ص 79، 80.

خلاصة:

كانت الفترة ما بين 1500 و1516 فترة ظهور دولة إسبانيا وبداية نزعتها الاستعمارية، فقد كانت هاته الفترة حاسمة وحرجة في تاريخ المغرب الأوسط ذلك من خلال تعرض هذا الأخير لصراع بين الإسلام والمسيحية والقضاء على كل ما يعرقل تنفيذ وصية البابا.

فكانت بداية الحملات وليدة الصراع مع المسلمين منذ إنهاء الحروب الصليبية في المشرق 1066- 1298م، وتم إحياؤها من خلال حرب الاسترداد[1]* وقد استندت تجاوبا مع دعوات البابا اسكندر الرابع إلى الحرب الصليبية في المنتصف الثاني من القرن الخامس عشر إثر سقوط القسطنطينية سنة 1453م، فكان الانتقام المسيحي لما حدث في الأندلس والقسطنطينية سبب أولي لغزو المنطقة فكانت بجاية، عنابة، مستغانم، ومنتطق عديدة من المغرب الأوسط فتم تحويل وهران إلى محور للتوحيد المسيحي الإسباني في إفريقيا الشمالية، فتم تحويل العديد من النظم الإدارية والاجتماعية والاقتصادية والدينية التي أقامها الملك الكاثوليكي للمدن الإسلامية وطرد المسلمين منها وكما ثم تحويل المرسى الكبير إلى مركز رئيسا للدفاع عن التواجد المسيحي الإسباني.

* حروب الاسترداد: هي حروب أعلنتها إسبانيا على المسلمين في الأندلس بغية استعادة الأرض منهم، ثم توسعت لتشمل المغرب الإسلامي. جعفر برون، تاريخ أوربا، ترجمة: علي المرزوقي، ط1، دار الأهلية للنشر، لبنان، 2006، ص 171.

لفصل الثاني: تواجد الإخوة بربروس على سواحل المغرب الأوسط

المبحث الأول: ظروف ظهور الإخوة بربروس

في أواخر القرن الخامس عشر (15م) وفي جزيرة مدلي من بحر الأرخبيل، عاش تركي من بقايا الفاتحين المجاهدين اسمه "يعقوب بن بوسف" كان متزوجا من سيدة أندلسية، ولدت له أولاده الأربعة إسحاق وعروج وخسرف ومحمد إلياس، ولقد انشغل المؤرخون كثيرا بهذا النسب، وادعوا فيه مختلف الأقاويل، فمنهم من يقول أن زوجه كانت أرملة راهب يوناني إلى غير ذلك مما لا يهمنا أمره كثيرا ولا قليلا، إنما الذي نستطيع أن نؤكده بناء على ما بين أديدينا من وثائق هو أن السيد يعقوب بن يوسف كان تركيا مسلما أما أبناءه فقد نشأوا نشأة إسلامية صلبة، وترعرعوا في حجر الجهاد الإسلامي الحنيف، يوم كانت الملحمة عامة وعارمة لحرا وبرا بين المسيحية والإسلام، فإذا كان ابنه محمد إلياس قد اختار طريق العلم والتبحر في دراسة القرآن والفقه، فإن الآخرين قد اندفعوا إلى الجهاد منذ نعومة أظافرهم واختاروا البحر مجالا لجهادهم، وإذا كان الدم الأندلسي يجري في عروقهم عن طريق والدتهم فإن نداء الدم قادهم إلى الجهاد في الحوض الغربي في البحر المتوسط، حيث كانت دولة المسلمين تذل وتهان وتتعرض بالبلاد الإسبانية، وحيث كان المستضعفون من الرجال والنساء يحاولون الفرار بدينهم وشرفهم من ذلك الجحيم الأليم فيقعون غالبا بين أيدي القراصنة الإسبان الذين يستعبدونهم ويغذون بهم أسواق الرقيق.[1]

كما كان على الإخوة بربروس سوى التوجه نحو سواحل البحر الأبيض المتوسط وخاصة المدن الثلاث التجارية سلانيك، أقربوز، طرابلس واختاروا البحر ميدانا واستقروا في جزيرة مدلي*[2]. فخرج الأولاد من بلدهم ليرتزقوا ويعينوا العائلة على تحمل عبئها الثقيل، وصادف ظهورهم تحول البحر الأبيض المتوسط إلى جلسة صراع بين الدول الأوربية المسيحية والدولة العثمانية المسلمة، كل طرف يسعى إلى فرض نفوذه واحتكار البحر.

[1] أحمد توفيق المدني، حرب الثلاث مائة سنة، المرجع السابق، ص ص 156، 157.
[2] الجزائري محمد عبد القادر، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر، شرح وتعليق حقي ممدوح، ط2، دار اليقظة العربية، بيروت، 1964، ص 92.
*جزيرة مدلي ليسوس: هي إحدى الجزر اليونانية كانت تحت سيطرة فرسان رودس ثم نزعت منهم من قبل العثمانيين عام 1457. جون وولف، المرجع السابق، ص 28.

وقد كانت الفرصة للبحارة المسلمين أبناء يعقوب المشاركة في هذا الصراع بدور لا يمكن إغفاله، إذ قام المجاهدون المغاربة بعقد ارتباط بالإخوين عروج وخير الدين للوقوف ضد مشاريع المسيحيين وتعامت بذلك أهمية المنطقة ومع نمو القوة البحرية العثمانية، تمكن عروج الذي قام بافتتاح المجال أمام إخوته بمشاريع التجارة البحرية نظرا لخبرته، إذ كان قد ركب وهو صغير وتمكن من أن يهجر مركبا تولى قيادته، غير أنه وقع في الأسر من طرف فرسان رودس[1]، بعدها استفاد عروج بالجزيرة فتعلم العديد من اللغات منها الفرنسية والإيطالية واطلع على سير إدارة الجزيرة وسياستها ما جعله على دراية بالأمور الإدارية التي ستساعده بعد ذلك في فرض النظام في المغرب الأوسط، وبعد ثلاث سنوات تمكن من الفرار وعاد إلى جزيرة مدلي ويعود بعدها إلى نشاطه، حيث التقى بابن الخليفة "بيازيد" الذي يتولى إمارة قرمان* ورأى فيه جنديا فارسا مقاتلا شجاعا فجهز له سفينة وبعث به غازيًا إلى سواحل إيطاليا، حيث كانت معقل للحرب البحرية ضد المسلمين والإسلام[2].

وبعد صراع طويل اتضحت قدرة بابا عروج على المغامرة وذلك بعد ابتكاره لاستراتيجية في المهاجمة على السفن التي كانت تستخدم قوة الرياح فقط وتستغني عن المجاديف[3]، فخاض حربا ضد السواحل الأوروبية، ومنها اتجه إلى تونس والتي كانت تحت حكم الحفصيين إلى جانب طرابلس والشرق الجزائري، فرأى السلطان الحفصي أبو عبد الله محمد أن يستعين بهذا البطل لحماية الدين والدولة ضد غارات القراصنة المسيحيين وهجماتهم البحرية، وأن يحمل مما يدفعه من خمس الغنائم موردا بدعم الخزينة التونسية والتي لم تكن مزدهرة. فأعطاه مرفأ بحلق الوادي ليأخذ منه قاعدة لمحاربة المسيحيين وتجنيد المتطوعين من الديار الإسلامية إلى الموانئ الإفريقية لمقاتلة الإسبان[4]، فاستقر عروج على سواحل

[1] ألتر عزيز مسامح، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، المرجع السابق، ص 97.

*إمارة قرمان: هي دولة إسلامية نشأت جنوب الأناضول، حكامها من أصول أرمنية، حيث أسسها نوري الصوفي الذي اعتنق الإسلام وقد قام بتنصيب اللغة التركية المكتوبة بالأبجدية العربية كلغة رسمية للدولة. إسلام باشا، إسبانيا والأندلس، مطبعة مصر، مصر، 2001، ص 23.

[2] المهدي بن علي شغيب، أم الحواضر في الماضي والحاضر، تاريخ مدينة قسنطينة، مطبعة البعث، الجزائر، ص 97.

[3] إلتر سامح، نفسه، ص 14

[4] بسنشر ويليام، المرجع السابق، ص ص 28، 31.

المملكة التونسية عام 1504م بأسطول من 12 سفينة وحولها إلى مركز لنشاطه البحري، وحاول عروج خلالها استمالة قبائل الشابية المستقرة في القيروان والتي امتد نفوذها إلى غاية موانئ تونس شرقا وغربا حتى حدود مدينة قسنطينة، بهدف إيجاد قاعدة لتجنيد البحارة و تكوين جيش متحرك لمشاريع مستقلة، وبعد زمن قصير ونتيجة لقرار السلطان سليم الأول بتحديد النشاط البحري في موانئ الأناضول والتجارة بها بسبب خلاف مع السلطان قرقود[1]، بعدها اضطر خير الدين إلى الاتجاه نحو المناطق الأكثر نشاطا فاتجه إلى الضفة الغربية للمتوسط أين اِلتقى أخاه عروج وهو متجه إلى جربة واستقر الأخوان في تونس بميناء حلف الواد، الذي كان يتوفر على الشروط المناسبة كبرج مراقبة.[2]

و كذلك بناء للجمارك للنشاط البحري، وعمل عروج وأخوه مع 100 ملاح على تقويته وتحصينه، وأدركا منذ الوهلة الأولى أهمية تونس كموقع جيد للعمل البحري[3]، وتحولا إلى أسطورة بفضل الغنائم والشجاعة التي يتميزان بها في معاركهم ضد الإسبان والإيطاليين.

وأصبحت تونس منطلق للجهاد في شمال إفريقيا للإخوة بربروس[4] فبدأ عروج وخيرالدين في رسم خطة للجهاد البحري، نصرة المسلمين الأندلسيين الفارين من الإبادة الإسبانية المنظمة واستطاع عروج بناء أسطول تمتد عملياته من السفن في عرض البحر إلى مهاجمة الموانئ الأوروبية خاصة الإسبانية مستعينا بالبحارة المغاربة، وصل عروج إلى المغرب الأوسط عام 1516م، واستقر بجيجل لوفرة غاباتها وأشجارها الصالحة لبناء السفن.[5]

[1] قرقود: وهو الأمير الذي ساعد عروج كثيرا بعد فراره من الأسر، وكان كفيلا بالأعمال الخيرية وبفدية الأسرى المسلمين.

[2] إلتر سامح، المرجع نفسه، ص ص 40، 41.
[3] المرجع نفسه، ص ص 40، 45.
[4] جلال يحي، المغرب العربي الكبير العصور الحديثة للاستعمار، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية، 1999، ص ص 23، 24.
[5] أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 158.

وخلال تلك الفترة التاريخية انتقلت القوات الإسبانية من مرحلة الاستراحة إلى مرحلة الهجوم المنظم على المغرب الإسلامي تحت راية الصليبية.[1]

بعدها انظم إليه 20 ألف متطوع من الأهالي تولى قيادتهم المجاهد الموفق، ونتيجة لوصول أسطول إسباني مكون من 15 سفينة جاء لنجدة المدينة قرر عروج القيام بمناورة خداعية، متظاهرين بالابتعاد عن بجاية، وانطلق الأسطول الإسباني لمطاردته، وعندها وجد عروج أن بعض قطع الأسطول قد أصبحت ضمن مجال مدفعيتهما، قاما بانقضاض مباغت، ونجح في الاستيلاء على سفينة إسبانية وأغرق أخرى فيما لاذت بقية قطع الأسطول بالفرار، وكان من رأي خير الدين محاصرة بجاية بحرا وترك المتطوعين لمحاصرتها برا حتى يضعف أمرها وتحين فرصة مناسبة للهجوم، غير أن عروج صمم على النزول بقسم من قواته للقيام بهجوم فوري فكان هذا إنذار للإسبانيين الذين عرفوا أن تلاحم القوى في البر والبحر سيؤدي إلى تعاظم قوة المسلمين، فعملوا فورا على طلب المزيد من الدعم إسبانيا، وغيروا بالمقابل سياستهم للفصل بين القوى البحرية عروج وأخيه خير الدين والقوى البرية الوطنية في المغرب الإسلامي، وذلك باستمالة هذه الأخيرة، وإغداق الأموال عليها وبذلك أمكن لهم العثور على من يتعاقد معهم لتأمين الإمداد والتموين للحامية الإسبانية، ونتيجة لإصابة عروج في ذراعه برصاصة فكسرت يده.[2]

المبحث الثاني: محاولة تحرير المستعمرات الاسبانية في شرق المغرب الأوسط

بعد معاناة سكان بجاية وشرق المغرب الأوسط من الاعتداءات الإسبان المتكررة أرسل حاكم قسنطينة أبو بكر الحفصي وفد إلى قاعدته بحلف الواد يلتمس منه مساعدته لاسترجاع المدينة من أيدي الإسبان، كما أرسل إليه أعيان بجاية وعلماءها دعوة لإنقاذها[3]، وفي تلك الفترة كانت بجاية تعاني من الانقسام القبلي إذ كان عبد العزيز المقراني يسيطر

[1] المهدي بن علي شغيب، المرجع السابق، ص ص 47، 51.
[2] بن علي شغيب، المرجع السابق، ص 53.
[3] أحمد ابت أبي الطياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، ج2، الدار التونسية للنشر والتوزيع، تونس/ الجزائر، ص 170.

على القسم الشرقي من بلاد القبائل وعاصمته بن عباس، أما القسم الغربي فكان تحت سيطرة ابن القاضي وفيما تتواجد مملكة كوكو وسعت إسبانيا إلى التحالف مع هذا الأخير لتمويل الحامية بالمواد الغذائية.

وقد حاول أهل بجاية المقاومة إلا أن الإنقسام، وضعف القوة العسكرية دفعتهم إلى التفكير في الاستعانة بقوة إسلامية ذاع صيتها، فشكل العلماء والأعيان من أهل بجاية وفد قابل عروج و ناشده إنقاذ بجاية من فيضة العدو[1]، وإن لك مثل ملك قسنطينة أبو بكر الحفصي، فقرر عروج الاستجابة لطلب الأعيان الذين اتصلوا به في حلف الوادي حيث كان يعسكر فجمع هو واخوه خيرالدين 5 سفن وتوجها في 01 أوت 1512م نحو بجاية و بدأ بمحاصرة القلعة.[2]

بينما يقال أن عروج قد أصيب بقذيفة مدفع كسرت ذراعه الأيسر فقد قام عروج بتعويضها بذراع من فضة أهداها له أصدقائه[3]. بعدها أخذ خيرالدين القيادة وبدأ الهجوم على السواحل الإسبانية لتسهيل انتقال المسلمين الفارين من إسبانيا ثم مهاجمة جزيرة مينواكة، ووصل إلى كورسيكا الخاضعة للجنوبيين تحت إمارة "اندري دوريا andri Doria" وبعد شفاء عروج من جراحته اتجه إلى جربة أولا "أين سيمكث عاما كاملا 1513م لإصلاح سفنه وتعويض خسارته، وفي عام 1514م قام بمعية خيرالدين الذي تحمل مسؤولية العمل البحري في غياب عروج في الإعداد لمخطط تحرير جيجل والاستعداد لتكرار عملية تحرير بجاية.

[1] المهدي بن علي شغيب، المرجع السابق، ص ص 52، 54.
[2] مولود قاسم نايت بلقاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830، المرجع السابق، ص 58.
[3] المهدي بن علي شغيب، المرجع السابق، ص ص 45، 46.

- **التوجه نحو تحرير بجاية**

بعد التجربة الاستطلاعية التي قام بها عروج عرف أنه من المحال محاصرتها وخوض حرب طويلة ضدها، وهو في قاعدته البعيدة بتونس، فقرر فتح جيجل التي تبعد مسافة 120 كلم عن بجاية غربا لاتخاذها قاعدة للعمليات المقبلة، أين تم فيها تجميع الوسائط وحشد القوى، وكانت مدينة جيجل خاضعة لحماية جنوده منذ سنة 1260م، وعندما قام عروج بهجومه الاول على بجاية، أسرعت حامية جيجل فطلبت الدعم الذي تولى أمره المغامر "اندري دوريا" الذي كان يعمل في حينها في خدمة فرنسا، وفي عام1514م قام عروج بمعية خيرالدين بتسليم السفن وتوجه نحو جيجل لتحريرها استجابة لطلب الأهالي.[1]

وبمجرد وصول الأسطول الإسلامي انظموا إليه، وخلال حصار جيجل تمكنا من الاستيلاء على برج الجنوبيين وأسر مائة جندي، بعدها تمكن عروج من تحقيق هدف مزدوج فقد استطاع تحرير أول مدينة ساحلية إسلامية وحصل أيضا على قاعدة صلبة و مأمونة برية وبحرية يمكن له الانطلاق منها لتطوير أعماله القتالية بعيدا عن تأثير السلطان الحفصي. وهكذا استقر عروج في جيجل، وبدأ في العمل على تحصين قاعدته الجديدة بمساعدة ابن القاضي وقبيلته زواوة، وكان لا يزال في حاجة لفترة من الراحة، حتى تشفى جراح ذراعه المبتورة، وقد استفاد من فترة الهدوء هذه فعمل على تطوير اتصالاته بمختلف الوفود الإسلامية التي زارته، وكسب التأييد وإقناع المترددين منهم بضرورة نبذ الخلافات والاتحاد من أجل تحرير البلاد الإسلامية.

أكمل عروج استعداده وغادر قاعدته الجديدة متوجها إلى بجاية في شهر أوت سنة 1514م وهو يقود جيشا، يضم عشرين ألف مجاهد من قبائل المنطقة، وصل إلى بجاية فأحكم الحصار حولها، واشتبك مع حاميتها التي كانت تحت قيادة "دون رايموند don roymond" في معارك قاسية، على أمل إنهاء الوجود الاسباني، وبالتالي فتح الطريق نحو

[1] ألتر مسامح، المرجع السابق، ص 48.

مدينة الجزائر، ونصب برجا للمراقبة ليمكنه من متابعة المعركة، وكان يتابع في الوقت ذاته دراسة التنظيم الدفاعي للمدينة في محاولته لتحديد نقاط الضعف التي تساعده على اختراق التحصينات والأسوار واستمرت عملية الحصار، وعاد إلى جيجل لقضاء فصل الشتاء فيها وإكمال الاستعدادات فجاءه رسول من بجاية يكرر طلبه حاملا رسالة إلى العلماء[1]

لقد تعددت محاولات عروج لتحرير بجاية ففي مارس 1515 قام بتنفيذ محاولة أخرى لتحرير بجاية وقد اعتمد في محاولته هذه على إجراء بري وبحري، فقاد قوته في البر ووجه اسطوله بحرا للمشاركة في العملية، حيث اقتحمت السفن مصب نهر الصومام الذي كانت مياهه غزيرة خلال ذلك الفصل من السنة، وما ساعده بإحكام الحصار على المدينة قيام جيش القبائل بالسير إلى غاية مجرى الواد الذي يسمى واد الصمام ليلتقي مع الأسطول البحري ليبدأ حصار المدينة ثم مهاجمتها، وركز الهجوم على معقل الحصن الصغير حتى يتم له تدميره، والقضاء على معظم حاميته، وحاولت القوات اقتحام المدينة عبر أنقاض القصر الصغير، غير أنها اصطدمت بالمواقع المحصنة ومراكز الدفاع القوية كما فشلت محاولة المهجوم من ناحية البحر، عندها وجه عروج مدافعه إلى القصر الكبير وأخذ يقصفه، فيما تقدمت قواته نحوه. واستخدمت المتفجرات و الألغام من أجل تدمير الخندق المحاط به وتدمير أسواره، ثم عمل على رفع المدافع إلى التل من أجل ضرب الأسوار بالرمي المباشر، بعدها قرر مهاجمة المدينة هجوما عاما من كل الجبهات. ووقعت معارك دموية استشهد فيها عدد كبير من المجاهدين، وقتل عدد من الإسبانيين أيضا، وقد تركز الهجوم الإسلامي على خمس نقاط حتى لا يترك للإسبانيين فرصة التجمع في مكان واحد، وبعد ثلاثة أشهر من المحاولات اضطر عروج ومن معه، ونتيجة لنقص في التموين والذخيرة، ووصول نجدة إسبانية من خمس سفن بقيادة "دي مارتين" لنجدة الحامية الإسبانية قرر الانسحاب، ورفع

[1] ألتر مسامح، المرجع السابق، ص 48.

الحصار قائلا قولته المشهورة " هنا تركت ذراعي وها أنا سأترك قلعتي أيضا، والله لن أعود قبل أخذها.[1]

وبعد انطلاقه بسفينته للإبحار وجد أن منسوب مياه وادي الصومام قد تناقصت حتى لم يعد باستطاعة السفن الملاحة فيه، كما لم يعد باستطاعة هذه السفن العودة إلى البحر نظرا لأن الإسبانيين كانوا قد حشدوا أسطولا قويا وقف يتربص خروج السفن من النهر، فأمر عروج بإحراق السفن بعد أن استخدم قسما منها لعبور القوات وحتى لا تسقط في أيدي الإسبان وعبر البر عائدا إلى جيجل بعد أن خسر ثلاثة أرباع جيشه فمكث بالمدينة، بينما قام خيرالدين بالذهاب إلى تونس من أجل تعويض ما خسرته قواته، وبناء سفن جديدة.[2]

وهو في وسط ذلك الصراع وصلته أصوات الاستغاثة من أهل الأندلس فتحمل مسؤولية نجدة أهلها، فتوجه خيرالدين على رأس قوة بحرية، بتكليف من عروج لضرب الثغور الإسبانية ونجدة أهل الأندلس فانقذ ما أمكن إنقاذه، نظرا لما كان يتعرض له من مضايقات الأسطول الإسباني، وانقض على جزر البليار التي أصبحت تحت سيطرة الإسبانيين واحتل مينوركا ثم رجع إلى قاعدته في مدينة جيجل، وفي أثناء فترة غيابه، كان أخوه عروج قد وطَّد مكانته في الجبهة والجبال المحيطة بها، حيث التف حوله قبائل كتامة وعينته أميرا للجهاد عليها، وتمكن عروج بذلك من تكوين جيش منظم ، احسن تشكيلة في مجموعة من الكتائب و دربه على استخدام الأسلحة الحديثة والرمي بها، وانظم إليه أحمد بن القاضي شيخ بلاد زواوة الغربية، أو كوكو بقواته المحلية هذا الأخير حاول استغلال سمعة عروج للحصول على بعض أملاك الحفصيين خاصة تلك المناخمة لحدود إمارته.[3]

[1] ألتر مسامح، المرجع السابق، ص ص 48، 49.
[2] نور الدين عبد القادر، غزوات عروج وخيرالدين، مطبعة الثعالبة، الجزائر، 1934، ص ص 25، 26.
[3] الميلي محمد مبارك، تاريخ الجزائر، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، 1963، ص ص 292، 297.

المبحث الثالث: محاولة تحرير المستعمرات غرب المغرب الأوسط:

- **محاولة تحرير المستعمرات الاسبانية غرب المغرب الاوسط:**

نظر لعدم الاستقرار وعدم استقامة أمر الملوك الزيانيين اضطراب أمر الحفصيين أثر قوى في خروج بعض المناطق والمدن بالمغرب الأوسط عن طاعت حكامها الحفصيين، وانشائهم لمدن مستقلة فعليا، ومنها مدينة الجزائر التي استقلت في شؤونها عن الإمارات المتأخرة، هذه المدينة التي بقيت محافظة على حريتها و استقلالها تحكمها هيئة من الشمالية تحت رئاسة شيخ من شيوخهم، وقد كانوا مستضعفين عاجزين عن حماية استقلالهم مقاومة الغزو الاسباني، نتيجة لتحكم الطابع القبلي في السياسة و ضعف الأسلحة، فاستقروا إلى ضرورة القبول بالحماية الإسبانية وأدوا الضريبية لهم على غرار ما كانوا يؤدونه للحفصيين أو المرينيين الذين تداولوا على ملك متيجة والجزائر[1] بعد الموافقة على كامل ما تم التفاوض عليه مع الإسبان ثم بناء قلعة والتي تدعى صخرة الجزائر penon d'Alger وذلك على أنقاض منارة إسلامي قديم، بعدما احتل الإسبان صخرة المرسى وبنو عليها حصنهم والذي سمي فيما بعد بحصن البينيون سنة 1510م وتحول أيضا إلى مقر للجوسسة وكذلك مكان يشن من خلاله الإسبان غاراتهم، مما جعل المدينة في حالة استنفار دائم، ما جعل أعيان المدينة يسئمون من ذلك وبعد وفاة الملك فرديناد في 23 جانفي 1516 قام الأعيان بمدينة الجزائر بالاجتماع وكان قرارهم ان يرسل سالم التوهي شيخ مدينة الجزائر وفدا إلى عروج يطلب النجدة باسم سكان مدينة الجزائر فاستجاب لهم عروج بعدما لحق به أخوه إسحاق في هذه السنة وسار إلى المدينة واسترجع في طريقه إليها مدينة شرشال ودخل إلى مدينة الجزائر سنة 1516 واستقبل استقبالا كبيرا وعيَّنه أهلها اميرا للجهاد.[2]

[1] الميلي محمد مبارك، المرجع السابق، ص ص 297، 298.
[2] كورين شوفاليه، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر 1510- 1541، المرجع السابق، ص 33.

استولى بعد ذلك الاخوة بربروس على مدينة تنس في سنة 1517 وقتلوا اميرها المتعاون مع الإسبان وقام عروج بعد ذلك بتنظيم المناطق التي دانت له، فقسمها إلى قسمين: قسم شرقي عيَّن عليه أخوه خيرالدين وجعل مدينة دلس مقرا له، وقسم غربي مركزه مدينة الجزائر وحكمه بنفسه، وبعدها استنجد سكان مدينة تلمسان بالإخوة بربروس لتخليصهم من ملكهم أبو حمو الثالث الذي رضى بالهيمنة الاسبانية منذ سنة 1511 م فاتجه عروج إلى تلمسان و ترك في قلعة بني راشد حامية بقيادة أخيه إسحاق لحماية ظهره من الإسبان في وهران، ووصل إلى تلمسان ودخلها في سنة 1517م بعد أن هزم قوات ابو حمو الثالث والذي فر إلى وهران مستنجدا بالإسبان، أعاد عروج ابو زيان الثالث على عرش تلمسان، إلا أن هذا الأخير سرعان ما انقلب على عروج، فقتله عروج مع الكثير من أسرى بني زيان وتسلم مقاليد السلطة بنفسه.[1]

بعدما تمكن ابو حمو الثالث من الحصول على دعم الإسبان في وهران اتجهوا معه إلى قلعة بني راشد وقتلوا حامينها بما فيهم إسحاق أخ عروج في سنة 1518م وساروا الى تلمسان وحاصروها لمدة ستة أشهر واقتحموها مما اضطر عروج إلى الانسحاب نحو الساحل فلاحقته القوات الاسبانية و قتلته مع بقية رجاله في نفس السنة في منطقة الوادي المالح وقطعوا رأسه وارسلوا بها إلى اسبانيا وأعادوا ابو حمو الثالث على عرش تلمسان.[2]

باشر عروج عمله محاولا اقتحام حصن البينيون فقام بقصفه بالمدفعية إلا أنه فشل في ذلك نتيجة ضعف مدفعيته أمام التحصينات الاسبانية القوية مما أدى إلى الاصطدام بينه وبين سالم التوهي الذي أعلن تمرده على عروج، غير أن هذا الأخير تمكن من القضاء عليه وباشر عملية تحصين المدينة إدراكا منه أن الإسبان سيحاولون استرجاعها خاصة بعد استنجاد يحيى بن سالم التومي بالإسبان.[3]

[1] محمد خير فارس، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الإحتلال الفرنسي، مكتبة دار الشرق، بيروت، 1979، ص 26.
[2] ويليام سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، المرجع السابق، ص 34.
[3] كورين شوفاليه، المرجع السابق، ص 33.

بعدما أحس أن الأمر قد أفلت من يده، وأن عشيرته من بني سالم لم تعد هي القوة الأساسية المسيرة للمدينة فأخذ في البحث عن الوسيلة التي تضمن له ولعشيرته استعادة ما كان لهما من نفوذ وسلطة مادية أين التقت رغبته مع رغبة البرجوازية، وكان عروج بدوره قد شعر بان الاتصالات التي كان يجريها سالم التومي ليست بريئة وتثير الشكوك، وقد أثرت أيضا على عملياته فضلا على أن مشروع سالم التومي يكمن في التحرك على جبهتين الجبهة الاسبانية والجبهة المحلية فقام بدعوة الإسبان عن طريق قائد الحامية الاسبانية.[1]

وهذا ما حدث فعلا جهز الإسبان حملة بقيادة "دييغو ديفيرا d . Diveira" فنزلت القوات الاسبانية في 30سبتمبر1516 على شواطئ باب الواد، فهزم الإسبان هزيمة قاسية وانسحبوا في فوضى وتحطم كل اسطولهم، ونتيجة هذا النصر دخل سكان البليدة وملیانة والمدية ودلس وبلاد القبائل وعرب المتيجة في طاعة عروج وتوسع نفوذه حتى شمل معظم وسط وشرق المغرب الأقصى.[2]

[1] جوليان شارل، المرجع السابق، ص 331.
[2] كورين شوفاليه، المرجع السابق، ص ص 33، 34.

الفصل الثالث:

مقاومة الإخوة بربروس

للحملات الإسبانية

المبحث الأول: مواجهة خير الدين للمشروع الاستعماري الاسباني

1-الأسس الاستراتيجية لسياسة خيرالدين في الدافع والمواجهة:

فرضت مجموعة الأحداث التي تعرضت لها الجزائر عبر سنوات التي قادها خيرالدين مجموعة الأساليب تتمثل أساسا في مواجهة التمردات الداخلية لتمتين الجبهة الداخلية، ومواجهة المحاولات المتكررة للإسبان والقوى الأوروبية لإضعاف الجزائر فعمل على:[1]

- تكوين تحالف مع الخلافة العثمانية هدفه تنسيق الجهد العسكري على كافة المستويات لاضطلاع الجهاد في البحر وتنسيق العمل بصورة رئيسية مع قوات الخلافة العثمانية التي تخوض الجهاد والصراع المرير في البر الاوروبي، في الوقت الذي يقود فيه الجهاد على الجبهات الأخرى بالأندلس والسواحل الجنوبية لأوروبا وشمال أفريقيا.
- القضاء على التمرد وتوحيد الجبهة الداخلية بسلسلة من العلاقات وصلت حد المصاهرة.[2]
- نظرا للموقع الاستراتيجي للجزائر، عمل خيرالدين على أن تقود الجزائر الجهاد ضد اسبانيا بالدرجة الأولى، و ضد كل الدول التي ترفع راية الصليبية ضد الإسلام بدرجة ثانية.

عرف خيرالدين بأنه إذا أراد مقاومة المشاريع الاستعمارية عليه فرض حصار دائم على الثغور المحتلة والقضاء على التهديد المباشر المتمثل في قلعة البينيون ثم العمل على خوض الصراع ضد الإمارات المجاورة كالحفصيين والزيانيين، وربطها باستراتيجية موحدة، لقد أثمرت هذه السياسة على مستوى العمليات بمجموعة من المظاهر أبرزها:[3]

1. تنسيق الجهد العسكري في العمليات المشتركة حيث عمل الأسطول الجزائر في مناسبات كثيرة على دعم الأسطول العثماني في العمليات الكبرى وأسهمت السفن الجزائرية بمجموعة المعارك كمعركة بريغستا في خليج آرتا herta عام 1538 ومعركة لبانت عام

[1] الزبيري محمد، ندخل إلى تاريخ المغرب العربي، المرجع السابق، ص 135.
[2] المرجع نفسه، ص 136.
[3] المرجع نفسه، ص 136.

1571، كما قام الأسطول العثماني بالمقابل دعم الجزائر في كل مناسبة ظهرت فيها الحاجة لمثل هذا الدعم أثناء هجمات الإسبانيين على المدن في المغرب الإسلامي[1]

2. عمل خيرالدين على توحيد الجهد وتغيير طرق القتال من أعمال المواجهة البحرية المستمرة المباشرة إلى الانتقال الى حرب الاستنزاف ضد القواعد التي أقامها الإسبانيين خاصة في وهران والمرسى الكبير وبجاية.[2]

3. وضع خيرالدين مبدأ عدم التمييز بين القواعد الأجنبية المتواجدة فوق أرض الجزائر والقواعد في المغربين الأدنى والأقصى، فرض هذا بدوره العمل على تنسيق التعاون مع الأقطار المجاورة ضد الخطر المشترك.

4. وضع خيرالدين استراتيجية الدفاع الاستراتيجي، وهي طريقة عدم التوقف دائما عند حدود انتظار وقوع العدوان لإحباطه بل التصدي لسفن الأعداء واستنزاف قدراتهم البحرية، والإغارة على المدن الساحلية المسيحية كحرب دفاعية، وقد وجد فيها المسلمون أداة دفاعية متقدمة تدعم أساليبهم في دفاعهم الاستراتيجي.

5. وضوح الهدف في كل مرحلة من مراحل الصراع واختيار طرائق العمليات المناسبة لبلوغ هذا الهدف. فقد حدد خيرالدين منذ البداية هدفه ببناء الجزائر القوية وتحرير بلاد المسلمين ونصرة الاندلسيين وبناء العلاقات داخليا ودوليا مع كل الدول.[3]

المبحث الثاني: المشروع التوسيعي الاسباني و مدى نجاحه

نتيجة لفشل سياسة القوة والمشروع في أن واحد، بدأ الإسبان في محاولة امتصاص الفشل بسياسة متعددة الأهداف سواء سياسة الإغراء التقليدية أو محاولة تفكيك الوحدة الطبيعية للمقاومة الإسلامية لمشاريعه.[4]

[1] يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية مع دول ومماليك أوربا، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1985، ص 13.
[2] المرجع نفسه، ص 13، 14.
[3] المدني، حرب الثلاثمائة سنة، المرجع السابق، ص 212.
[4] عبد الحميد ابن أبي الزيان بن أشنهو، جخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر، مكتبة جواد سماعي، د س ن، د م ن، د ط، ص 117.

1-سياسة شارل الإغرائية لخيرالدين

قرر شارل الخامس بعد الانتصارات التي حققها في تونس وهنين متابعة توجيهاته في الجزائر وبقية المناطق، خاصة وهو منتصر على تونس لكن التعب والانهاك الذي لحق بجيشه واسطوله ارغمه على الانسحاب عائدا إلى اسبانيا، وبعد أن تأكد من استحالة إضعاف الجزائر والقضاء على خيرالدين لجأ إلى سياسة جديدة وهي محاولة اغراءه وفتح المفاوضات مع خيرالدين بإيعاز من مستشارية ومجلس الكورتيس، فوجه في أواخر عام 1539م سفيره خوان قاليقو juan gallego إلى الجزائر حاملا مشروع الصلح، غير أن خيرالدين اشترط على سفير شارل الخامس الانسحاب من المرسى الكبير، وهران، بجاية، عنابة وحلق الواد وطرابلس، مقابل كفه عن محاربة الإسبان.[1]

وأن يطلق سراح الأسرى المسلمين مقابل إطلاقه لسراح الأسرى المسيحيين، ضمن عملية تبادل الأسرى، وأن يقف عن اضطهاد رعاياه المسلمين بالأندلس، وبعد اتصالات دامت تسعة أشهر، كاد الصلح أن يعقد بين خيرالدين وملك إسبانيا، لولا تدخل الخليفة العثماني الذي رفض عقد الصلح بناء على إلحاح ملك فرنسا "فرنسوا الأول" الذي يرى فيه خطر كبير عليه، فانقطعت المفاوضات في أوت 1540م، فلجأ شارل الخامس عام 1541 إلى مخطط آخر، وهو إغراء خيرالدين بحكم شمال أفريقيا كحاكم عام بالنيابة عنه مقابل إعلان التبعية له، و لن يكلفه إلا بدفع ضريبة جزئية، وكان هدف شارل الخامس من ذلك هو انتزاع شمال إفريقيا من أيدي العثمانيين وجعلها منطقة نفوذ له، لكن خير الدين رفض ذلك.[2]

2-حملة شارل الخامس الفاشلة على الجزائر

بما أن الصلح أغلق نهائيا قرر شارل الخامس غزو الجزائر على غرار ما فعل بتونس وهنين فجمع أسطولا يوم 19 اكتوبر 1541 سماه "الأسطول الذي لا يقهر"، ومستندا

[1] عبد الحميد بن أبي الزيان بن أشنهو، المرجع السابق، ص 117، 118.
[2] المرجع نفسه، ص 119.

إلى فكرة أن تخليد اسمه لا يمكن أن يكون إلا بإخضاع الأقطار الإسلامية وخاصة الجزائر لراية المسيح، وما شجعه عل ذلك الامر الصادر من بول الثالث عام 1541م "أن بابا بول الثالث أشهر الحرب على الجزائريين، وأن شارل الخامس قرر أن يكون هو بطل المسيحية" لتكون سنة 1541 سنة الحسم بالنسبة للجزائر.[1]

لكن الحملة فشلت وفشل معها حلم الإسبان وملكهم، أما بالنسبة للمشروع الاسباني فقد شكلت سنة 1541 قمة التوسع الاسباني في شمال إفريقيا إذ أصبح الوجود الاسباني في حلق الواد، عنابة، بجاية، وجربة وملوك تونس وتلمسان تحت وصاية ملك اسبانيا، غير أن هذه السيطرة لم تحقق أهدافها إذ ظل الوجود الاسباني محصورا في الحصون حيث أصبحت الجيوش الإسبانية في حصونها ينقصها السلاح والمؤونة أمام الأهالي الناقمين عليهم إذ ظل الداخل بعيدا عن السيطرة.

والعامل الأساسي في فشل مشروع إسبانيا هو اكتفاء الإسبان بالاحتلال المحدود ومسك المواقع الاستراتيجية، فكانت الحصون في حالة الحصار الدائم دفعت العديد من الجنود إلى الفرار واعتناق الإسلام فأدى كل ذلك إلى فشل وإجهاض المشروع الإسباني .[2]

3-محاولة خيرالدين التصدي لحملة شارل الخامس:

بعد أن علم خيرالدين بالحملة التي يقودها شارل الخامس ضد الجزائر قام بتجهيز 80 سفينة للتصدي للأسطول الإسباني، ومساعدة الجزائريين فانطلق يوم 14 جويلية 1541 بأسطول مشكل من 100 سفينة وقسم أسطوله إلى قسمين قسم يتجه إلى السواحل الاسبانية لضرب الأسطول في الميناء أو محاولة قطع الطريق أمام الحملة وقسم يتجه إلى الجزائر لتدعيم القوة الجزائرية في حالة إذ تمكن الأسطول الاسباني من تجنب الكمين الذي نصبه خير الدين إلا أن الأسطول الإسلامي أجبر على الرسو في إحدى الجزر القريبة من السواحل الإيطالية بسبب العاصفة التي ضربت المنطقة ، وحالما بلغ السواحل الإفريقية علم

[1] عبد الحميد بن أبي الزيان بن أشنهو، المرجع السابق، ص 119.
[2] المرجع نفسه، ص 119، 120.

بأن الإسبان قد هزموا وأن أسطولهم المتبقي قد عاد منسحبا إلى بلاده فعاد خيرالدين إلى اسطنبول في منتصف جانفي 1542م.

المبحث الثالث: اتفاقية السلام بين العثمانيين واسبانيا

طول تلك الفترة لم يتوقف سعى الإسبان من أجل إبرام اتفاق مع الدولة العثمانية بحيث استمرت الاتصالات بين الطرفين من 1581/1577 عن طريق مبعوث فليب 11 مارجيلياني margliani سبقتها عدة محاولات من الإسبان للتقرب من العثمانيين رغم شروط هؤلاء ومنها دفع الجزية والانسحاب من شمال أفريقيا، أما طلب الإسبان الوحيد هو الإبقاء على اي اتفاق سريا حتى لا يقال عنهم انهم خضعوا لشروط الأتراك، في وقت سعت فيه فرنسا إلى إفشال اي تقارب بين الإسبان والعثمانيين هؤلاء بدورهم كانوا في حاجة لهدنه على الاقل في وقت تجدد الصراع مع الفرس وفي اليمن على خليج البحر الأحمر، وفعلا تم الاتفاق على اول هدنة سنة 1578م يتم تحديدها كلما انتهى مفعولها بعدما اشهر و ذلك حتى تم الامضاء على معاهدة سلم سنة 1581م لمدة 10 سنوات.[1]

منذ البداية سعى علج علي[2] لدى السلطان طالب منه رفض أي تقارب مع الإسبان اذا لم ينسحبوا من وهران والمرسى الكبير، في وقت استمر فيه نشاط البحرية الجزائرية في البحر المتوسط بقيادة علج علي ومن ذلك الهجوم هجوم حسان فينيزيانو[3] على سواحل جزر البليار واستلائه على غنائم هامة 1578 كما قام هذا الأخير بتحديد وتدعيم تحصينات مدينة الجزائر، وتم تعيينه على رأس الايالة إثر مراسلة من السلطان سليم الثاني إلى احمد أعراب و ذلك سنة 1572م.[4]

[1] جيمس أنتوني فرويد، التنافس البريطاني الأسباني الفرنسي في القرن 16م، تر: السيد يوسف نصر، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، 1991، ص 103.

[2] ولد في كلابريا في قرية ليكاتيلي على الساحل من عائلة صيادين، اختطف عام 1520 على يد خيرالدين عند بلوغه سن 34سنة، اعتنق الإسلام، شجاعته وإقدامه قربه من خيرالدين، خلف درغوث خلال حصار مالطا 1565م، عين بيلر باي إفريقيا 1568، استولى على تونس من الاسبان 1569، شارك بالأسطول الجزائري في معركة ليبانة 1571م، تولى قيادة الأسطول العثماني من 1471- 1577م، حرر حلق الوادي وتونس سنة 1574م، من أهم مشاريعه توحيد بلاد المغرب في دولة قوية واسترجاع الأندلس، كما أنه صاحب فكرة فتح قناة الربط بين البحر المتوسط والبحر الأحمر، احتفظ بمنصبه البيلر باي حتى وفاته في 27 جوان 1578. جون وولف، المرجع السابق، ص 107.

[3] أصله من البندقية اعتنق الاسلام، كان عبدا لدرغوث رئيس وأمين عام لعلي باشا ثم أصبح قبطان باشا في القسطنطينية. حسين مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته ممن قبل الفتح الإسلامي إلى الغزو الأوربي، المرجع السابق، ص 24.

[4] المرجع نفسه، ص 103.

في عام 1581 عاد علج علي إلى الجزائر، استعدادا لتوجيه حملته على المغرب لكن انفجار ثورة في اليمن عجلت بتوجهه لإخمادها وبقي منشغلا بمشاكل الشرق والفرس والشيعة والتوسع في أوروبا حتى وفاته 1587م.

قبل ذلك قرر السلطان إلغاء منصب بيلار باي وفصل تونس وطرابلس عن الجزائر ففي مراسلة من السلطان مراد الثالث إلى حسان فينيزيانو يأمره بإنشاء ولاية طرابلس العرب على رأسها حسن باشا والإبقاء على والي تونس في منصبه، وتعيين بشاوات يحكمون مباشرة باسم السلطان لمدة ثلاثة سنوات وكان ذلك سبب في اضطرابات التي أدت إلى استقلالية الإيالات وسيطرة رياس البحر على الحكم لان نشاطهم البحري هو أهم مورد مالي للبلد فنشطت القرصنة، واستقلت الجزائر بمواردها المالية عن تونس و طرابلس بتنصيب محاسب من الكراغلة أثر مراسلة من السلطان مراد الثالث الى جعفر باشا يعلمه بإنهاء المحاسبة الموحدة مع تونس وطرابلس.[1]

وعلى الرغم من النزاع بين الانكشارية ورياس البحر فقد تمكن محمد باشا من إقناع رياس البحر بقبول الانكشارية كجنود على متن سفنهم على فتح المساواة كما أقنع الانكشارية بقبول الانكشارية الأعلاج في صفوفهم والتمتع بنفس الحقوق، عكس هذه النظرة اعتبر دي قرامون بأن النزاع بين الطرفين هو ميزة تطور الايالة، أما شارل اندري جوليان فيعتبر ذلك الاختلاط عاملا في تدهور القرصنة وهذا ما يتنافى مع الحقائق التاريخية الصارخة، مادام أن أعظم أيام البحرية الجزائرية وعصرها الذهبي سيتحدد مع مطلع القرن السابع عشر.[2]

[1] Salvator bono, corsari barbareschi. ERL edizioni RAL adiodélévisione, Italiana, 1964, Ilite,Italy, p 32.

[2] جون وولف، المرجع السابق، ص 107.

خلاصة:

لم تكن حروب خير الدين في البر والبحر إلا نوعا من حروب الإيمان التي عرفها المسلمون، ولقد كشفت عن الملامح العامة لسير خيرالدين أن هذا القائد العظيم قد جابه في حياته صعوبات لا نهاية لها بل إن هذه السيرة لم تكن أكثر من سلسلة من العقبات والصعوبات لم يكن أقلها مجابهة، كانت متفوقة على قوته بما لا يمكن قياسه أو مقارنته في موازين القوى التقليدية، ولم يكن أقلها أيضا التعرض لنكسات مريرة وصلت به لحد التجرد من كل القوى إلا قوة الثقة بالنفس والإيمان الذي لا حدود له والتي لم يكن أقلها كذلك فقد الأعزاء وإخوته في الدم وفي الجهاد في سبيل الله حيث سقط إثنان لأجل المغرب العربي الإسلامي والأمر مماثل فيما تلقاه خيرالدين من الغدر على أيدي الأعداء الداخل من الخونة والذين خذلوه مرة بعد أخرى، غير أن ذلك لم يضعف من تصميمه أو ينال من عزيمته ثم جاءت أخطار البحر والجوع والعطش والحرمان كلها لتحتل مكانتها في جملة ما جابه خيرالدين من العقبات والصعوبات، فلولا الإيمان المطلق ولولا ما يفرضه هذا الإيمان من فضائل كثيرة كالوفاء والإخلاص وإنكار الات والاستعداد الدائم للتضحية والصدق والشجاعة بكل أشكالها لما فكر الإخوة أبناء يعقوب في نجدة المسلمين سواء في الأندلس أو شمال إفريقيا ولما ساهموا في إحباط أخطر مشروع بعد الحروب الصليبية الأولى والهادفة إلى تنصير البلاد الإسلامية فبعد تكوين إيالة الجزائر استطاع خيرالدين أن يؤثر في مجرى الأمور بشمال إفريقيا ويوحد هذه البلدان وأن يطهر البحر المتوسط من القراصنة الأوربيين بحيث تمكنت القوات الجزائرية والعثمانية من إخراج الإسبانيين من تونس وطرابلس في القرن 16م، فكان إنقاذ شمال إفريقيا من الاستعمار الإسباني هدفا وضعه الإخوة أبناء يعقوب وإليهم يرجع الفضل في بقاء شمال إفريقيا مسلما.[1]

[1] كليل صالح، سياسة خير الدين في مواجهة المشروع الإسباني لاحتلال المغرب، مذكرة لنيل شهادة الماجيستير،في التاريخ، جامعة العقيد لخضر، باتنة، ص 153.

خاتمة

كانت الحالة العامة السياسية والاقتصادية في المغرب الأوسط في أواخر القرن الخامس عشر حالة من التأخر والانحطاط، بسبب الفوضى وعدم الاستقرار وعدم الانتباه إلى الأخطار المحيطة بهم من جانب الأعداء القادمين من الضفة المقابلة للبحر المتوسط، حيث كانت إسبانيا على دراية تامة بهذه الأوضاع وربما كان لها يد في ما كان يقع من تناحر كمقدمة لتنفيذ مخطط السيطرة على المنطقة، فقد استغل الإسبان ضعف الدولة الزيانية وعجزها عن بسط نفودها في المناطق التي كانت تابعة لها بتنفيذ مخططها الاستعماري.

استند الاحتلال الإسباني للمغرب الأوسط إلى جملة من الأسباب الدينية والسياسية والاقتصادية، فقد كان طرد المسلمين من الأندلس واحتلال سواحل الجزائر أحد أهم أولويات السياسة الخارجية لإسبانيا.

إن احتلال الإسبان للمغرب الأوسط اقتصر في الغالب على المناطق الساحلية الاستراتيجية الهامة كوهران والمرسى الكبير، حيث أقاموا فيها حاميات ومراكز محصنة لصد أي عدوان مضاد محتمل من طرف السكان الأصليين، وهو يدل على أنهم تحاشوا المدن الداخلية خوفا من الاصطدام مع السكان الأصليين.

لقد لعب الزعماء المحليين وشيوخ الطرق الصوفية دورا كبيرا في تعبئة الشعب باسم الدين للدفاع عن البلاد وعرقلة الإسبان عن النفود إلى المناطق الداخلية واحتلالها، وحصرهم داخل القلاع التي تحصنوا فيها إلى أن تمكن الأتراك العثمانيون من طردهم منها نهائيا.

إيمان أبناء يعقوب المطلق والقوي واستعدادهم الدائم للتضحية ونجدة المسلمين سواء في الأندلس أو شمال إفريقيا ساهم في إحباط أخطر مشروع بعد الحروب الصليبية الأولى والهادف إلى تمسيح البلاد الإسلامية.

بعد تكوين إنالة الجزائر استطاع خيرالدين أن يؤثر في مجرى الأمور بشمال إفريقيا، ويوحد هذه البلدان وأن يطهر البحر المتوسط من قراصنة أوروبا، فكان إنقاذ شمال إفريقيا

من الاستعمار الإسباني هدفا وضعه الإخوة أبناء يعقوب وإليهم الفضل في بقاء شمال أفريقيا مسلما.

الملاحق

خيرالدين بربروس

السلطان الحفصي أبو عبد الله

علي علج

المصدر: www.pnst.cerist.dz

الملك فرديناند

الملكة إيزابيلا

البابا ألكسندر

المصدر: www.pnst.cerist.dz

Plano esquemático de Orán, su relieve y sus fortalezas (O. Carbonell). Plan schématique d'Oran, son relief et ses forteresses (O. Carbonell).

خريطة تحصينات وهران

المصدر: أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 80.

خريطة توضح تقسيمات شمال إفريقيا وجنوب إسبانيا

المصدر: أحمد توفيق مدني، المرجع السابق، ص 80.

الأسطول العثماني في مواجهة الأسطول الإسباني

الأسطول البحري العثماني بقيادة خيرالدين بربروس

المصدر: www.pnst.cerist.dz

شعار الأسطول البحري للإخوة أبناء يعقوب

شعار مملكة قشتالة

المصدر: www.pnst.cerist.dz

قائمة المصادر

والمراجع

أ- المصادر:

1-أحمد ابن أبي ضياف: إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، ج2، الدار التونسية للنشر والتوزيع، تونس، الجزائر.

2-أحمد بن عبد الرحمان الشعراني: القول الأوسط في أخبار بعض ما حل بالمغرب الأوسط، تحقيق ناصر الدين سعيدوني، بيروت، 1995.

3-أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي: الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق المهدي البو عبدلي، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية بالجزائر، مطبعة دار البعث، قسنطينة الجزائر.

4-الأغابن بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تحقيق يحي بو عزيز، بيروت، 1988.

5-الجزائري محمد بن عبد القادر: تحفة الزائر في تاريخ الجزائر، شرح وتعليق: حقي ممدوح، ط2، دار اليقظة العربية، بيروت، 1964.

6-سبنسر ويليام: الجزائر في عهد رياس البحر، ترجمة: زيادية عبد القادر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980.

7-كورين شوفالييه: الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة الجزائر 1510- 1541، ترجمة: جمال حمادنة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ت.

8-لوي كارداياك: الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون المجابهة الجدلية 1492- 1640، تعريب ونقد: عبد الجليل التميمي، مطبعة الاتحاد العام التونمي للشغل، تونس، 1983، ط1.

9-المهدي بن علي شغيب: أم الحواضر في الماضي والحاضر، تاريخ مدينة قسنطينة، مطبعة البعث، الجزائر، د س ن.

ب- المراجع:

1-أحمد توفيق المدني: حرب الثلاث مائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492- 1792، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، قسنطينة، الجزائر.

2-آلتر عزيز سامح: الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة: عامر محمود علي، ط1، دار النهضة العربية، لبنان، 1998.

3-أليتش بروشين بنكولاي، تاريخ ليبيا من منتصف القرن السادس عشر حتى مطلع القرن 20، ترجمة: عماد حاسم، ط2، دار الكتاب الجديدة المتحدة، طرابلس، 2001.

4-بسام العسلي: خيرالدين بربروس، دار النفاس، بيروت، 1986.

5-جعفر برون، تاريخ أوربا، ترجمة: علي المرزوقي، ط1، دار الأهلية للنشر، لبنان، 2006.

6-جلال يحي: المغرب العربي الكبير، العصور الحديثة للاستعمار، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية، 1999.

7-جلال يحي، التاريخ الأوربي الحديث والمعاصر منذ الحرب العالمية الأولى الفترة المعاصرة، المكتب الجامعي، مصر، د ط، 1991.

8-جون وولف: الجزائر وأوروبا 1500- 1830م، ترجمة: أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.

9-الجيلالي عبد الرحمان: تاريخ الجزائر العام، ج2، ط2، دار الثقافة، بيروت، 1983.

10- جيمس أنثوني فرويد: التنافس البريطاني الاسباني الفرنسي في القرن 16م، ترجمة: السيد يوسف نصر، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، 1991.

11- حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته من قبل الفتح الإسلامي إلى الغزو الأوروبي، المجلد 2، العصر الحديث للنشر، بيروت، 1992.

12- عبد الحميد بن أبي الزيان بن أشنهو:دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر، مكتبة جواد سماكي، د س ن، د م ن.

13- عبد الفتاح مقلد الغنيمي: موسوعة تاريخ المغرب العربي، القاهرة، 1994.

14- عبد القادر فكاير: الغزو الإسباني لسواحل الجزائرية وآثاره 1505- 1792م، دار هومة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2019.

15- عبد القادر فكاير: العلاقات الجزائرية البرتغالية خلال الفترة العثمانية، الدورية التاريخية، ع 18، ديسمبر 2012.

16- عبد الله شريط محمد الميلي: الجزائر في مرآة التاريخ، مطبعة البعث، قسنطينة، 1965.

17- علي محمد الصلابي: دولة السلاجقة، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع، القاهرة، 2006.

18- عمر محمد عبد العزيز: الفوزي محمد علي: دراسات في تاريخ أوربا الحديث والمعاصر 1815- 1950، دار النهضة العربية بيروت، 1999.

19- عوض محمد مؤنس: تقديم البيشاوي سعيد عبد الله، الحروب الصليبية، دراسة تاريخية نقدية، دار الشروق عمان، ط1، 1999.

20- فيشر هربرت: أصول التاريخ الأوربي الحديث، ترجمة: زينب راشد وأحمد عبد الرحيم، مراجعة احمد عزب، دار النهضة العربية، بيروت، 1970.

21- محمد خير فارس: تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي، مكتبة دار الشرق، بيروت، 1979.الزبيري محمد: مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث.

22- محمد دراج: الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس، 1512- 1543، تصدير ناصر الدين سعيدوني، الجزائر، 2012.

23- مولود قاسم نايت بلقاسم: شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830، ط1، ج1، دار البعث للطباعة والنشر، الجزائر، 1985.

24- الميلي محمد مبارك: تاريخ الجزائر، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، 1983.

25- نور الدين عبد القادر: غزوات عروج وخيرالدين، مطبعة الثعالبة، الجزائر، 1934.

26- يحي بو عزيز: علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالیك أوروبا، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1985.

27- يحي بوعزيز: تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007.

ج- المجلات:

1-أسماء أبلالي: التحرشات الإسبانية على السواحل الجزائر خلال القرن 16م، قراءة في الدوافع والنتائج، مجلة روافد للبحوث والدرايات، العدد 2، غرداية، 2017.

د- المذكرات:

1-كليل صالح، سياسة خير الدين في مواجهة المشروع الإسباني لاحتلال المغرب، مذكرة لنيل شهادة الماجيستير، في التاريخ، جامعة العقيد لخضر، باتنة.

2-نجييب دكاني: الوجود الإسباني على السواحل الجزائرية ورد فعل الجزائريين خلال القرن 16م، رسالة ماجيستير، نحن إشراف: ناصر الدين سعيدوني، الجزائر، 2002.

هـ- المصادر باللغة الأجنبية:

1- Amoura amar, resumé de l'histoirede l'algerie traduit par maradj (ali), edition raihana, alger, 2002.

2- Contereras (J) et dedien (J.P) formation de l'inquisition espagnole, 1470- 1820, Espagne, 1980.

3- Contereras et dedieu : formation de l'inquisition espagnol 1470- 1820, Espagne, 1980

4- Emmanuelli (René) : gènes et l'Espagne dans la guerre de course (1559- 1569). Ed/ société médiévales méditerranéennes, paris, 1964.

5- Ferand charles, conquete de bouhie par les espahnoles d'apreés un manuscrit arab, RAN° 12, 1868.

6- Gaignard (atherine): maures et chrétiene a grende 1492- 1570, edition le temps, lesbone, 1989.

7- Villiers (pauline) marine rogale, corsaires.trafic dans l'atlantique de louis XIV à louis XVI, PR. Esses. Universitaires de spt entrion, lille, 1991.

فهرس

الموضوعات

فـهـــــرس المـوضـوعـــــات

الشكر والتقدير

الإهداءات

مقدمة.....أ- د

الفصل التمهيدي: أوضاع المغرب الأوسط قبيل الاحتلال الإسباني

المبحث الأول: تراجع قوة المغرب الأوسط.....06

المبحث الثاني: الأوضاع السياسية والعسكرية.....07

المبحث الثالث: الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية.....10

خلاصة.....12

الفصل الأول: بداية المشروع الإسباني لاحتلال المغرب الأوسط

تمهيد.....14

المبحث الأول: ظهور النزعة الاستعمارية الإسبانية.....16

المبحث الثاني: أسباب ودوافع الاحتلال.....20

المبحث الثالث: السياسة الإسبانية.....25

المبحث الرابع: بداية الحملات العسكرية.....27

المبحث الرابع: نتائج وردود الفعل.....35

خلاصة.....45

الفصل الثاني: تواجد الإخوة بربروس على سواحل المغرب الأوسط 1516م.

المبحث الأول: ظهور الإخوة بربروس.....47

المبحث الثاني: محاولة تحرير المستعمرات شرق المغرب الأوسط.....50

المبحث الثالث: محاولة تحرير المستعمرات غرب المغرب الأوسط.....52

الفصل الثالث: مقاومة الإخوة بربروس للحملات الإسبانية.

المبحث الأول: مواجهة خيرالدين للمشروع الإسباني.....59

المبحث الثاني: المشروع التوسعي الإسباني ومدى نجاحه.....60

المبحث الثالث: اتفاقية السلام بين العثمانيين والإسبان.....63

خلاصة.....65

خاتمة.....67

الملاحق

قائمة المصادر والمراجع.